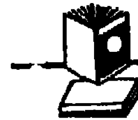
الإشراف الفني زهير الحمو

ميلان كونديرا

غراميات مضحكة

نوفيلات

ترجمة : معن أحمد عاقل



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب :

MILAN KUNDERA

RISIBLES AMOURS

Traduit du tchèque par
François Kérel

NOUVELLE ÉDITION
REVUE PAR L'AUTEUR

غراميات مضحكة = Risibles amours / ميلان كونديرا ؛
ترجمة معن احمد عاقل . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ .
١٩٩ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (القصة القصيرة العالمية ؛ ٢٠) .

١ ـ ٨٩١٫٨ ك و ن غ ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ كونديرا ٥ ـ عاقل ٦ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٩٧/٦/٦٦١

القصة القصيرة العالمية

« ٢٠ »

الإهداء

إلى أمـــي

جذر الفرح العميـق

وإلى أختي منار

أمـــل الغـــد

الدكتور هاقـل بعـد عشرين عاماً

١

يوم ذهب الدكتور هاقل لكي يتعالج ، كانت عينا زوجته الجميلة مبللتين بالدموع . إنها دموع الحنان على الأرجح (لأن هاقل يتألم من مرض المرارة منذ بعض الوقت ولم تشاهده زوجته من قبل يتألم أبداً) لكن الصحيح أيضاً أن احتمال فراقه لمدة ثلاثة أسابيع يوقظ فيها عذابات الغيرة .

ما قولكم ؟ هل كانت هذه الممثلة الجميلة والفتية ، والتي هي محط الإعجاب ، تغار على سيد كهل لم يخرج من منزله منذ بضعة شهور دون ان يحمل في جيبه علبة الأقراص لكي يتقي الآلام الغادرة ؟

لكن الأمر كان هكذا ، ولم يكن أحد يفهمها ولا حتى الدكتور هاقل الذي كان قد ظنها هو أيضاً بحسب مظهرها ، منيعة ومستبدة ؛ ولم يزده ذلك إلا افتتاناً ، عندما بدأ يعرفها معرفة أفضل وعندما اكتشف بساطتها وطبيعتها البيتية وخفرها ؛ والغريب انهما حتى عندما تزوجا ، لم تأخذ الممثلة للحظة بعين الاعتبار المزية التي تحظى بها من شبابها ؛ فقد كانت كالمفتونة بحبه وبالشهرة الماجنة المخيفة لزوجها الذي كان يبدو لها دوماً هارباً وعصياً على الإمساك به ، ومع أنه لم يدخر جهداً مع مرور الأيام لإقناعها بفارغ الصبر (وبمنتهى الإخلاص) بأنه ليس لها ولا يمكن أن يكون لها مثيل ، إلا أنها كانت تغار بشدة وألم ؛ وحده نبلها كان يفلح في الإحتفاظ تحت غطائه بهذا الاحساس السيء الذي لم ينفك يغلي فيها بعنف .

كان هاقل يعلم كل ذلك ، فيتأثر منه تارة وينزعج تارة أخرى وهو متعب قليلاً فقط ، لكنه كان يبذل ما بوسعه لتهدئة عذابات زوجته لأنه يحبها . كان يحاول هذه المرة أيضاً مساعدتها فيبالغ في آلامه وخطورة حالته لأنه يعلم أن الخوف الذي يعتري زوجته لدى التفير في مرضه هو بالنسبة لها خوف مقوٍ ومطمئن ، بينما تنخرها المخاوف التي تنتابها من عافيته (المليئة بالخيانات والحيل) ؛ لذلك كان يفتتح الحديث غالباً عن الدكتورة فرانتيسكا التي ستهتم به أثناء علاجه ؛ لأن المثلة تعرفها جيداً وتطمئن لصورة مظهرها السمح تماماً والبعيد حتماً عن أية صورة خليعـة .

عندما شاهد الدكتور هاقل ، بعد أن أصبح في الحافلة ، العينين الدامعتين للمرأة الجميلة الواقفة على الرصيف ، اعتراه شعور بالراحة إن صح القول ، لأن حب زوجته ممتع بالطبع لكنه مرهق . ومع ذلك ، لم تكن أحواله في محطة الحمية المعدنية على ما يرام . فبعد أن يتجرع الماء الذي كان عليه أن يروي به جسده ثلاث مرات في اليوم ، كانت تنتابه الآلام ويشعر بنفسه متعباً ، وحين يصادف نساء جميلات تحت القناطر ، يتبين برعب احساسه بشيخوخته وعدم اشتهائه لهن . المرأة الوحيدة التي كان يسمح له برؤيتها حتى الضجر هي فرانتيسكا الطيبة التي تحقنه بالإبر وتقيس له ضغطه وتجس له بطنه وتخبره بكثرة عما يجري في المحطة المعدنية وعن طفليها ، ولا سيما عن ابنها الذي يشبهها على ما يبدو .

كان في هذه الحالة النفسية حين تلقى رسالة من زوجته ، آه يا للمصيبة ! هذه المرة لم يفلح نبل زوجته في الاحتفاظ بالغطاء مغلقاً على المكمن الذي يغلي بغيرتها ؛ فهي رسالة مليئة بالنواح والشكوى : لم تكن تريد لومه على شيء ، كما تقول ، لكنها لا تنام الليل ؛ كانت تعلم جيداً ، كما تقول ، أن حبها يضايقه ، وتتخيل بسهولة مقدار سعادته لأنه وجد سبيلاً للراحة بعيداً عنها ؛ أجل ، تدرك تماماً انها

تزعجه ، وتعلم أيضاً أنها أضعف من أن تغير حياته التي ما تزال مواكب النساء تعبرها ؛ أجل ، تعلم ذلك ولا تحتج ، لكنها تبكي ولا تستطيع النوم ...

حين أنهى هاڤل هذه القائمة الطويلة من النواحات ، تذكر السنوات الثلاث العابثة التي أرغم نفسه خلالها ، بصبر ، على أن يبدو لزوجته كماجن تائب وزوج محب ؛ فشعر بضجر ويأس بالغين . دعك الرسالة بغضب وألقاها في سلة المهملات .

٢

وشعر بالتحسن في اليوم التالي ؛ فلم تعد مرارته تؤلمه واعترته رغبة ضعيفة ، لكنها واضحة في العديد من النساء اللواتي شاهدهن في الصباح يتنزهن تحت القناطر . ولسوء الحظ ، طغى اكتشاف خطير جداً على هذا التحسن المتواضع : هؤلاء النساء كن يعبرن بقربه دون أدنى بادرة اهتمام ؛ أصبح يعتبر بالنسبة لهن ضمن الموكب المرضي لشاربي المياه المعدنية الشاحبين ....

قالت له الدكتورة فرانتيسكا بعد أن فحصته في الصباح : « كما ترى ، حالتك أفضل . وعلى الأخص ، حافظ على الحمية بدقة . من حسن الحظ أن المريضات اللواتي تصادفهن تحت القناطر هن أكبر سناً وأسوأ صحة من أن يبعثن فيك الاضطراب ؛ وهذا أفضل بالنسبة لك ، لأنك بحاجة للهدوء » .

أخذ هاڤل يدك قميصه تحت بنطاله ؛ وبينما يقوم بذلك ، كان يقف أمام المرآة الصغيرة المعلقة في الركن فوق المغسلة ، ويتملى وجهه بمرارة . ثم قال بحزن كبير : « إنك مخطئة ، لاحظت أنه يوجد بين العجائز اللواتي يتنزهن تحت القناطر بضع فتيات جميلات ، لكنهن لم يعرنني أي اهتمام .

ــ أجابت فرانيسكا : « أصدق عن طيب خاطر كل ما تريده ، إلا هذا ! » أشاح الدكتور هاقل بوجهه عن المشهد الحزين الذي يـراه في المرآة ، وحدق في عيني الدكتورة الساذجتين والوفيتين ؛ شعر حيالها بالامتنان ، مع معرفته بأنها لم تقم إلا بابداء رأيها في تقليد ، رأيها في الدور الذي اعتادت على رؤيته يؤديه (الدور الذي كانت تنتقده ، لكن دومـاً بحنان) .

ثم طرق الباب . فتحته فرانتيسكا وأطل منه رأس شاب ينحني باحترام . « آه هذا أنت ! لقد نسيتك تماماً ! » أدخلت الشاب إلى حجرة المعاينة وشرحت لهاقل : « منذ يومين يحـاول رئيس تحرير الصحيفة المحلية لقاءك » .

بدأ الشـاب يعتذر بتزلف عـن إزعاج الدكتور هاقل بلا مبرر ، واجتهد (للأسف ! بتعبير متوتر توتراً منفراً بعض الشيء) في استخدام لهجة رقيقـة : لا ينبغي للدكتور هاقل أن يلوم الدكتورة لكشفها عن وجوده ، لأن الصحفي كان سيصل إلى اكتشاف ذلك في كل الأحوال ، ولو في حمام المياه المعدنية إذا اقتضى الأمر ؛ ولا ينبغي للدكتور هاقل أيضاً أن يلوم الصحفي على وقاحته لأنها صفة ضرورية في مهنة الصحافة، بدونها لن يتمكن من كسب معيشته . ثم أسهب في الكلام عن المجلـة المصورة التي تنشرها المحطة مرة في كل شهر والتي يتضمن كل عـدد منها مقابلة مع مريض مشهور يتعالج في الحمة ؛ فذكر على سبيل المثال العديد من الأسماء ، منها اسم عضو في الحكومة وآخر لمغنية محترفة وأيضاً اسم لاعب هوكي على الجليد .

قالت فرانتيسكا : « كما ترى ، لا تهتم نساء القناطر الجميـلات بك لكنك بالمقابل تهم الصحفيين .

ــ قال هاقل : إنه انحطاط بشع » لكنه كان مسروراً بهذا الاهتمام فابتسم للصحفي ورفض عرضه بمواربة واضحة لدرجة تثير العطف

« فيما يخصني ، لست عضواً في الحكومة ولا لاعب هوكي ولا مغنية طبعاً . من المؤكد أنني لا أريد التبخيس من قيمة أعمالي العلمية ، لكنها تهم الأخصائيين أكثر مما تهم الجمهور العريض .

ــ اجاب الشاب بصراحة متهورة : لكنك لست من أريد إجراء حديث معه ؛ وحتى لم يخطر ذلك على بالي . إنها زوجتك . علمت أنها ستزورك اثناء علاجك .

ــ قال الدكتور هاقل بمنتهى البرود : أنت أدرى مني » ثم دنا من المرآة وعاين من جديد وجهه الذي لم يكن يروق له . زرر ياقة قميصه وهو صامت ، بينما استغرق الصحفي الشاب في ارتباك جعله يفقد بسرعة وقاحته المهنية التي أعلن عنها بفخر ؛ فاعتذر للدكتورة وشعر بالراحة حين أصبح خارجاً .

٣

كان الصحفي أرعن أكثر منه غبياً . لم يكن يقدر كثيراً مجلة الحمة المعدنية ، إلا انه كان يترتب عليه ، لأنه المحرر وحيد فيها ، بذل ما بوسعه لكي يملأ كل شهر صفحاتها الأربع والعشرين بالصور والكلمات الضرورية . كان يجد لذلك سبيلا في الصيف لأن الحمة تعج بضيوف مرموقين ، فتأتي عدة فرق موسيقية لتقيم الحفلات في الهواء الطلق ، والأخبار الصغيرة المثيرة متوفرة . اما اثناء الأشهر الماطرة ، فقد كانت الفلاحات والسأم يجتاحون القناطر ، وكان يجب اقتناص أية فرصة . لذلك حين علم بالأمس أن الحمة تضم بين ضيوفها الآن زوج ممثلة مشهورة ، الممثلة نفسها التي تمثل في الفيلم البوليسي الجديد الذي ينجح منذ بضعة أسابيع في تسلية المستحمين المرضى ، تنفس الصعداء وجدّ في بحثه حالاً .

لكنه أصبح خجلاً الآن .

وفي الحقيقة ، وبما أنه كان يشك بنفسه دوماً ، فقد كان في حالة خضوع ذليل بالنسبة للناس الذين يعاشرهم ؛ ويبحث خائفاً في نظراتهم عن تأكيد لحاله وقيمته . لذلك كان يحسب أنهم وجدوه مثيراً للرثاء وأحمق ومزعجاً . وهذه الفكرة تتعبه لا سيما وأن الرجل الذي أبدى رأيه فيه كان جذاباً للوهلة الأولى . لذلك ، بعد أن طارده القلق ، تلفن للدكتورة في اليوم نفسه كي يسألها عن حقيقة زوج المثلة ، فعلم أن هذا السيد ليس عالماً كبيراً في الميدان الطبي وحسب ، بل شخصية مشهورة جداً حتى بدون ذلك ، فهل يعقل أن لا يكون الصحفي قد سمع بصيته أبداً ؟

رد الصحفي بالنفي فقالت له الدكتور بدماثة : « طبعاً ، فانت ما زلت طفلاً . ومن حسن الحظ أنك لست إلا جاهلاً في الاختصاص الذي برع فيه هاڤل بامتياز » .

عندما أدرك ، بعد أن طرح أسئلة أخرى على اشخاص آخرين ، أن الاختصاص الذي الحت إليه الدكتورة ليس إلا الشبقية ، الميدان الذي لا يوجد فيه نظير للدكتور هاڤل في بلده على ما يبدو ، شعر بالخجل من اتهامه بالجاهل ومن تأكيده فوق ذلك لهذا الحكم بسبب عدم سماعه بصيت الدكتور هاڤل . وبما أنه حلم دوماً بأن يصبح خبيراً مثل ذلك الرجل ، فقد كان مستاء تماماً لأنه تصرف أمامه بالتحديد ، أمام معلمه كأحمق مقيت . وصار يتذكر ثرثرته ومزاحه الأحمق وقلة ذوقه ، ولم يكن بمقدوره إلا التسليم بخضوع بصحة الحكم الذي اعتقد انه قرأه في الصمت المستنكر للمعلم وفي نظرته الشاردة المحدقة في المرآة .

ليست الحمة التي حدثت فيها هذه القصة كبيرة ، وجميع الناس يتلاقون فيها عدة مرات في اليوم شاؤوا أم أبوا . لم يصعب إذاً على الصحفي الشاب أن يقابل سريعاً الرجل الذي يشغل تفكيره . كان ذلك نهاية بعد الظهر بينما حشد المصابين بالكبد يذهب ويجيء تحت القناطر .

كان الدكتور هاڤل يرتشف ماءً كريه الرائحة من طاسة من الخزف الصيني. اقترب منه الصحفي الشاب وبدأ يقدم له الاعتذارات بارتباك. لم يكن يحسب مطلقاً ، كما كان يدعي ، أن زوج السيدة هاڤل الممثلة المشهورة ، هو نفسه الدكتور هاڤل ، وليس هاڤلاً آخر ؛ لأنه يوجد كثيرون باسم هاڤل في بوهيما ، ومع الأسف لم يتبين الصحفي العلاقة بين زوج الممثلة والطبيب المشهور الذي سمع طبعاً بصيته منذ زمن طويل ، ليس فقط كقطب في عالم الطب ، بل وأيضاً ــ كان بمقدوره على الأرجح السماح لنفسه بقول ذلك ــ بحسب الشائعات والطرائف المتنوعة .

لا يوجد أي سبب لإنكار أن الدكتور هاڤل بمزاجه الكئيب استمع إلى كلمات الشاب بسرور ، ولا سيما تلميحه إلى الشائعات والطرائف التي كان الدكتور هاڤل يعلم تماماً أنها تخضع ، مثل الانسان نفسه ، لنواميس الشيخوخة والنسيان .

قال للشاب « لست مضطراً للاعتذار » وحين شاهد ارتباكه ، أمسكه برفق من ذراعه ودعاه للتسكع معه تحت القناطر . وأكد لكي يطمئنه « ذلك لا يستحق الذكر » لكنه كان في الوقت نفسه يركز بمجاملة على تلك الاعتذارات وكرر مراراً : « هكذا إذاً ، سمعت بصيتي ؟ » وفي كل مرة كان يقهقه بضحكة سعيدة .

وافق الصحفي بعصبية : « أجل ، لكنني لم أكن أتخيلك بتاتاً هكذا » .

ــ سأل الدكتور هاڤل باهتمام صادق : « وكيف كنت تتخيلني »؟ وبينما كان الصحفي يغمغم بأمر ما وهو لا يجد شيئاً يقوله ، استطرد هاڤل بكآبة : « أعلم أن شخصيات الروايات والأساطير أو الحكايات الطريفة صنعت ، على العكس منا ، من مادة غير معرضة للتلف مع الزمن . كلا ، لا أعني بذلك أن الأساطير والحكايات الطريفة خالدة ؛

فمن المؤكد أنها تهرم أيضاً ، وأن شخصياتها تهرم معها ؛ لكنها تهـرم بحيث لا تتغير ملامحها ولا تزيف ، بل تتلاشى وتمحى ببطء وتنتهـي إلى التبدد في شفافية الفضاء . هكذا سيختفي بيبي موكو وهافل هاوي المجموعات ، وكذلك مويز وبالاس أثينا أو القديس فرانسوا ولسيز ، ولكن تخيل أن فرانسوا سيتلاشى ببطء مع العصافير الصغيرة الجاثمة على كتفه ومع الظبي الذي يتمسح بساقه ومع إضمامة أغصان الزيتون التي تمنحه ظله ، تخيل أن كل لوحته ستمحي معه وتتحول إلى زرقـة مواسية معه ، أما أنا يا صديقي العزيز ، كما هي حالي الآن ، عار ، وستقتلع من الأسطورة ، سأختفي في خلفيـة مشهد طبيعي ذي الوان صارخة بشراسة وتحت نظر شاب حيوي بطريقة متهكمة » .

كان خطاب هافل المسهب يحير الصحفي ويحمسه في آن معـاً ، وتنزه الرجلان أيضاً لفترة طويلة في الليل الذي بدأ يحل . عندما افترقا، صرح هافل بأنه مل من طعام الحمية وأنه سيتناول بسرور عشاءً لذيذاً في اليوم التالي ؛ فسأل الصحفي ما إذا كان يقبل مشاركته فيه .

ووافق طبعاً .

٤

قال الدكتور هافل حين أصبح على الطاولة مقابل الصحفي وحين تسلم قائمة الطعام : « لا تخبر الدكتورة بذلك ، فلدي فكرة مبتكرة عن الحمية : أتجنب بعناية كل الأطباق التي لا أشتهيها » ثم سأل الشاب عما يرغب بتناوله على سبيل المقبلات .

لم يكن المحرر معتاداً على تناول الكحول قبل الوجبات ، ولأنه لم يجد شيئاً آخر يقوله ، أجاب « فودكا » .

بدا الدكتور هافل مستاء : « الفودكا ، إنها تفوح برائحة الـروح الروسـية !

ـ قال الشاب : هذا صحيح » ومنذ تلك اللحظة ضاع . كان يشبه متقدماً للشهادة الثانوية أمام لجنة الامتحان . لا يسعى ليقول ما يفكر به وليفعل ما يريده ، بل يجهد نفسه لإرضاء الممتحنين ؛ يجهد نفسه ليحزر أفكارهم ونزواتهم وأذواقهم ؛ ويتمنى أن يكون جديراً بهم . لم يكن ليسلم لأي سبب في العالم بأن عشاءاته كانت سيئة ومبتذلة وانه لم تكن لديه أية فكرة عن النبيذ الذي يجب عليه شربه مع لحم ما . وكان الدكتور هاقل يعذبه عذاباً لا نهاية له باستشارته دائماً حول اختيار المقبلات والوجبة الأساسية والنبيذ والجبنة .

عندما تأكد الشاب الصحفي أن اللجنة الفاحصة وضعت له علامة سيئة في الامتحان الشفهي للتذوق ، أراد تعويض هذه الخسارة بحماس بالغ فتفحص علانية أثناء الاستراحة بين المقبلات والوجبة الأساسية النساء الحاضرات في المطعم ، وحاول بعد ذلك البرهنة على اهتمامه وتجربته ببضعة تعليقات . أخفق من جديد . عندما قال بأن المرأة الشقراء الجالسة بعد طاولتين ستكون عشيقة ممتازة بالتأكيد ، سأله الدكتور هاقل بدون تحامل عما جعله يقول ذلك . رد المحرر باجابة غامضة ، وحين استفهم منه الدكتور عن تجاربه مع الشقراوات ، تلعثم بكذبات لا تصدق وسكت بسرعة .

كان الدكتور هاقل بالمقابل يشعر بالراحة والسعادة إزاء نظرات الصحفي المعجبة . طلب زجاجة نبيذ أحمر لكي ترافق اللحم ، وقام الشاب ، بعد أن انعشه الكحول ، بمسعى جديد كي يظهر نفسه جديراً بحظوة المعلم ؛ فتكلم باسهاب عن فتاة صادفها مؤخرا والتي كان يغازلها منذ بضعة أسابيع على أمل النجاح . كان اعترافه غامضا فترتب على الابتسامة المغتصبة المترامية على وجهه ، بالتباسها المقصود ، الإفصاح عما لم يقله ، لكنها لم تكن تفصح إلا عن ريبة مقموعة بعناء . كان هاقل يشعر تماماً بكل هذا ، وبعد أن استثير تعاطفه ، صار يسأل الصحفي عن شتى الصفات الجسدية للفتاة المذكورة ، لكي يتيح له التركيز على الموضوع الذي يؤثره والتكلم بمنتهى الحرية . لكن الشاب فشل هذه

المرة أيضا : كانت اجاباته غامضة على نحو ملفت النظر ؛ فلم يستطع أن يصف بشيء من الدقة العمارة العامة لجسد الفتاة ولا المظاهر المختلفة لشكلها الخارجي ، وبدرجة أقل أيضا طبعها . إذاً ، انتهى الدكتور هافل إلى أن يجعل من نفسه موضوع الحديث بكامله ، ومستسلماً شيئاً فشيئاً لنشوة الفرح في الأمسية ولنشوة النبيذ ، صار يفرض على الصحفي مسارورة روحية مؤلفة من ذكرياته الشخصية ونوادره ونكاته.

راح الصحفي يشرب نبيذه ببطء ويصغي ، وصارت تعتريه أثناء ذلك مشاعر متناقضة : كان قبل كل شيء بائساً : فهو يشعر بنفسه تافها وأحمقا ويبدو بمظهر المبتدىء المتردد أمام معلم قدير ، ويحس بالخجل من التكلم ؛ لكنه كان سعيداً في الوقت نفسه : فهو يشعر بالزهو لأن المعلم يجلس مقابله ويتحدث معه كرفيق ويبوح له بكل أنواع الملاحظات النفيسة جداً .

حين أخذ الدكتور هافل يستفيض ، رغب الشاب في التكلم بدوره ، والإدلاء بدلوه وموافقته على رأيه والظهور كرفيق أنيس ؛ لذلك انزلق من جديد إلى الحديث عن صديقته وطلب من هافل بسرية فيما إذا كان يوافق على لقائها في اليوم التالي لكي يقول له رأيه فيها على ضوء تجربته؛ وبعبارة أخرى (أجل ، إنها الكلمة التي تفوه بها في اندفاعه) لكي يصادق عليهـا .

من أين جاءته هذه الفكرة ؟ ألم تولد فجاة من الثمل والرغبـة المحمومة بقول شيء ما ؟

ومهما بلغت عفويتها ، فقد كان الصحفي يرجو منها ثلاث فوائد:

– قد يخلق تآمر أهل الخبرة الشائع والسري (التصديـق) بينه وبين المعلم علاقة سرية ، وقد توطد الرفقـة والتواطؤ الذي كان الصحفي يصبو اليه .

ـ وإذا أعطى المعلم موافقته (كما كان الشاب يأمل ؛ لأن الفتاة المذكورة استهوته بشدة) فسيكون ذلك اقرارا للشـاب ولاختياره وذوقه ، وسيكون هكذا قد ارتقى من مرتبة مبتديء إلى مرتبة صاحب في نظر المعلم ، وبذلك سيغدو مهما بحسب رأيه الخاص .

ـ واخيرا : كانت الفتاة نفسها ستحصل على مزيد من القيمـة في نظر الشاب وقد تتحول المتعة التي سيجنيها من حضوره ، من متعة وهمية إلى متعة واقعية (لأن الشاب كان يشعر أحياناً أن العالم الذي يعيش فيه هو بالنسبة له عبارة عن متاهة من المعايير التي لم يكن معناها يظهر له إلا بطريقة مبهمة جداً والتي لا تفلح بالتحول من معايير ظاهرة إلى معايير واقعية إلا بعد اختبارها) .

٥

حين استيقظ الدكتور هافل في اليوم التالي ، شعر أن مرارتـه تؤلمه قليلاً بسبب عشاء الأمس ، وحين نظر إلى ساعته ، تبين له أن عليه أن يكون في جلسة المعالجة بالماء خلال نصف ساعة ، وأن عليه بالتالي العجلة ، مع أن العجلة هي إحدى الأمور التي يبغضها كثيراً في العالم ، وبينما كان يرتب شعره ، شاهد في المرآة وجهاً شعر أنه منفر . كان النهار يبدأ بداية سيئة .

لم يكن لديه وقت حتى لتناول افطاره (هنا أيضا بدا له علامة سيئة ، لأنه كان يحرص على عاداته اليومية المنتظمة) وتوجه بسرعة إلى منشأة الحمة المعدنية . حين وصل إليها ، دلف إلى رواق طويل ، طرق باباً فظهرت شقراء جميلة ترتدي قميصاً أبيض ، لفتت نظـره بهيئة عابسة إلى تأخره ودعته للدخول . بدأ هافل يخلـع ملابسه في حجرة الحمام خلف حاجز . سمع بعد برهة « أما انتهيت ؟ » كـان صوت المسددة الذي يزداد فظاظة يهين الدكتور هافل ويحرضه على الثأر (يا للأسف ! لم يكن الدكتور هافل يعرف منذ سنوات إلا شكلاً

وحيداً للثأر من النساء !) عندئذ خلع سرواله وقلص بطنه ، ثم شد ظهره وأراد الخروج من حجرة الحمام ، لكنه اشمأز بعد ذلك من هذا الجهد المهدد لكرامته الذي كان يبدو له مثيراً للسخرية كثيراً عند شخص آخر ، فترك بطنه يتهدل براحة وتوجه نحو المغطس الكبير بلا مبالاة كان يرثيها وحدها خليقة به ، وغمر نفسه بالماء الفاتر .

كانت المسدة غير المكترثة كليا بصدره وبطنه تفتح الصنابير على لوحة القيادة ، وحين تمدد الدكتور هافل في قاع المغطس أمسكت ساقه اليمنى وركزت تحت الماء ، مقابل باطن قدمه ، فوهة الأنبوب التي كان ينبجس منها تدفق شديد . حرك الدكتور هافل ، الذي كان مدغدغاً ، ساقه فذكرته المسدة بالنظام .

لعله لم يكن من العسير طبعاً إرغام الشقراء على التخلي عن فظاظتها القاسية بمزحة أو ثرثرة أو موضوع لطيف ، لكن هافل كان منزعجاً جداً ومهانا . كان يقول لنفسه بأنها تستحق العقاب ولم يكن يريد تسهيل الأمور عليها . وعندما بدات تركز الأنبوب تحت أسفل بطنه بينما هو يستر أعضاءه التناسلية بيديه ، لأنه يخشى التأذي من الدفق العنيف ، سألها عما ستقوم به في ذلك المساء . سألته دون أن تنظر إليه عن سبب اهتمامه ببرنامجها . فأوضح لها بأنه يسكن وحيداً في حجرة ذات سرير واحد وأنه يتمنى مجيئها لمشاركته فيها . فقالت له الشقراء : « أعتقد انك أخطأت العنوان وأمرته » أن ينقلب على بطنه .

اذاً ، كان الدكتور هافل متمددا على بطنه في قاع المغطس ويرفع ذقنه لكي يتنفس . شعر بالدفق العنيف يدغدغ فخذيه وهو مسرور من النبرة الحازمة التي خاطب بها المسدة . لأن الدكتور هافل عاقب دوما النساء المتمردات والمتعجرفات أو المدللات ، باستدراجهن بفتور ودون أي حنان وبصمت تقريباً ، إلى أريكته التي يصرفهن عنها بمنتهى الفتور أيضا . احتاج لبرهة كي يدرك أنه خاطب المسدة بفتور ملائم ودون أي حنان ، إلا انه لم يستدرجها وعلى الأرجح قد لا يستدرجها إلى

أريكته . أدرك أنه مرفوض وهذه إهانة جديدة . كان سعيداً لأنه ألفى نفسه وحيدا في حجرة الحمام متدثرا بالمنشفة .

خرج بعد ذلك مسرعا من المنشأة وتوجه نحو لوحة اعلانات سينما لوتان حيث كانت تعرض ثلاث صور إعلانية ، إحداها صورة زوجته التي تبدو فيها مذعورة وجاثية أمام جثة . راح الدكتور هافل يتأمل وجهها الرقيق الذي شوهه الهلع ، فشعر بحب غامر وحنين جامح . ظل فترة مديدة دون ان يفلح في تحويل نظره عن الواجهة الزجاجية ، ثم قرر المضي إلى فرنتيسكا .

٦

قال حين أذنت الدكتورة لمريضها بالانصراف ودعته للدخـول إلى حجرة المعاينة : « اطلبي القسم الخارجي من فضلك ، يجب ان اكلـم زوجتـي » .

« هل حدث مكروه ؟

ـ قال هافل : أجل ، أشعر بالوحدة ! »

تأملته فرنتيسكا بارتياب ، أدارت قرص الهاتف على رقم القسم الخارجي ورددت الرقم الذي يمليه هافل عليها . ثم أغلقت السماعة وقالت : « انت تشعر بالوحدة ؟

ـ قال هافل يتبرم : ولم لا ؟ إنكِ تشبهين زوجتي . تجدينني رجلاً توقف عن الحياة منذ زمن طويل . إنني بسيط وأعزل وحزين . لقد تقدمت في العمر . ويمكنني أن أصارحك بأن هذا قلما يكون ممتعا.

ـ اجابته الدكتورة : كان يجب أن يكون لك أطفال . ولو حـدث ذلك لما فكرت كثيرا بنفسك . أنا أيضا تقدمت في العمـر ولكنني لا أفكر

بذلك . عندما أرى ابني يكبر : أتساءل كيف سيبدو حين يغدو رجلا ولا انوح على السنين التي انقضت . تخيل انه قال لي البارحة : بماذا يفيد الاطباء مادام الناس سيموتون لا محالة ؟ ما رأيك بذلك ؟ وبماذا كنت ستجيبه على هذا السؤال ؟

لحسن الحظ ، لم تسنح الفرصة لهاڤل كي يجيب لأن الهاتف رن . رفع السماعة وحين سمع صوت زوجته ، اخبرها في الحال بأنه حزين ولا يوجد أحد يتكلم معه ولا احد يرغب برؤيته ، وانه لا يحتمل البقاء وحيدا هنـا .

تكلم صوت خافت في السماعة ، حذر في البداية ، ومشلول ومتلعثم تقريبا ، لكنه انتهى إلى الخضوع قليلا بتأثير كلمات الزوج .

كان هاڤل يقول في الميكروفون : « تعالي إلى هنـا من فضلك ، تعالي لمرافقتي هنا حالما تستطيعين ! » وكان يسمع زوجته تجيبه بأنه يسعدها المجيء لكن لديها عرض في كل الأيام تقريباً .

قال هاڤل « في كل الأيام تقريبا وليس في كل الأيام » وسمع زوجته تجيبه بأنها حصلت على إجازة في اليوم التالي ، لكنها لا تعلم فيما إذا كان الأمر يستحق المجيء لنهار واحد .

رد هاڤل بسرعة : « كيف يمكنك قول هذا ؟ انت لا تعلمين إذاً قيمة نهار في الحياة القصيرة ؟

ــ سأل الصوت الخفيض في السماعة : ولست عاتبا علي حقا ؟

ــ لماذا سأعتب عليك ؟

ــ بسبب الرسالة ، انت تعاني الآلام وانا ازعجك برسالة حمقاء من امرأة غيورة »

غمر الدكتور هاڤل مكبر الصوت بموجة حنان وأعلنت زوجتـه (بصوت أصبح الآن متأثراً تماماً) أنها ستأتي في اليوم التالي .

قالت فرنتيسكا حين أقفل هاڤل السماعة : « رغم ذلك أحسدك فلديك كل شيء . عشيقات بقدر ما تريد وايضا اسرة جميلة » .

كان هاڤل ينظر إلى صديقته التي تتكلم بحسد ، لكنهـا علـى الأرجح أسعد من ان تستطيع إضمار الحسد لأي إنسان ، وشـعر بالشفقة عليها لأنه يعلم أن الفرح الذي يهبه الأطفال لا يمكن استبداله بأفراح اخرى ، وأن فرحا يرزح تحت وطأة واجب الحلول مكـان أفراح اخرى هو فرح سريع الزوال .

ذهب بعد ذلك إلى الغداء ، وآوى إلى القيلولة بعد الغداء ، وعند الاستيقاظ تذكر أن الصحفي الشاب ينتظره في المقهى لكي يعرفه على صديقته . ارتدى ملابسه وخرج . أثناء نزوله درج منزل الشفاء ، لمح في البهو عند حجرة الملابس ، امرأة طويلة تشبه فرس السـباق الأصيلة . آه . لم يكن ينقص إلا هـذا ! لأن اولئك النسوة بالتحديد هن اللواتي يولهن الدكتور هاڤل دوما . ناولت سيدة حجرة الملابس المعطف إلى المرأة الطويلة فتقـدم هاڤل لمساعدتها على ارتداء الكم . شكرته المرأة الشبيهة بالفرس بفتور فقال لها هاڤل : « هل يمكنني تقديم خدمة اخرى لك يا سيدتي ؟ » وابتسم لها ، لكنها أجابت بالنفي دون أن تبتسم وخرجت على عجل .

شعر هاڤل بالإهانة من ذلك فتوجه نحو المقهى وهو يحس بحالة من العزلة المتجددة .

٧

كان الصحفي جالساً منذ فترة طويلة إلى جانب صديقته (وقـد اختار مكاناً يستطيع منه رؤية المدخل) ولم يفلح في التركيز على الحديث

الذي كان ينسج بينهما عادة بفرح وبلا كلل . كان يشعر بالتهيب بسبب هائل . حاول للمرة الأولى منذ تعرفه على صديقته تفحصها بعين ناقدة وبينما راحت تتكلم (من حسن الحظ أنها لم تكف للحظة عن الكلام بحيث لم يفطن أحد لاضطراب الشاب) اكتشف في جمالها عدة عيوب صغيرة ؛ فأقلقته ، لكنه اطمأن في الحال إلى فكرة أن هذه القائمة من العيوب كانت تجعل جمالها أكثر جاذبية وأن وجودهـا برمته يغمره بمنتهى اللطف بسبب تلك العيوب .

لأن الشاب كان يحب كثيراً صديقته .

لكنه إذا كان يحبها كثيرا ، فلماذا استسلم إذاً لفكرة التصديق عليها من قبل طبيب داعر ، وهي فكرة مهينة بالنسبة لها ؟ وحتى إذا منحناه الظروف المخففة ، مفترضين على سبيل المثال أن ذلك ليس إلا أمراً عادياً بالنسبة له ، فكيف يحدث أن تقلقه مجرد لعبة بسيطة إلى هذه الدرجة ؟

ليست لعبة . لم يكن الشاب يعلم حقاً ما يجب عليه تصوره عن صديقته ، وقد كان عاجزاً حقاً عن تحديد سحرها وجمالها .

وهل كان إذاً ساذجاً وغراً إلى درجة أنه لم يكن يستطيع تمييز المرأة الجميلة عن القبيحة ؟

كلا ، لم يكن محروماً من التجربة في هذا المجال ، فقد تعرف آنفاً إلى العديد من النساء وخاض معهن كل أنواع المغامرات العاطفية ، لكنه كان يولي نفسه دوماً اهتماما فائقا أكثر من انشغاله بهن . لنتأمل على سبيل المثال هذا الحدث البسيط الملفت للانتباه : كان يتذكر تماما لباسه حين خرج مع فلانة ، ويعلم أنه في يوم كذا وكذا ارتدى بنطالا فضفاضا وأنه استاء من ذلك ، ويعلم انه ارتدى في يوم آخر كنزة صوفية بيضاء بدا فيها بمظهر رياضي رشيق ، لكنه لم يكن يتذكر مطلقا لباس صديقاته .

اجل ، هذا ملفت للانتباه فعلا : فقد كان يعكف عند مغامراته القصيرة على دراسات طويلة ودقيقة لمظهره الشخصي ، بينما لم يكن لديه إلا حس عام وسطحي حيال من يواجهه من الجنس الانثوي ؛ لأنه كان يهتم بالصورة التي يظهرها لرفيقته أكثر من الصورة التي تبديها له رفيقته . ذلك لا يعني انه ليس مهماً بالنسبة له أن تكون الفتاة التي تخرج معه جميلة او غير جميلة . لأن عيون الآخرين تشاهدهما وتحكم عليهما معا (عيون الناس) بالاضافة الى أن عيني رفيقته تشاهده ؛ وكان يحرص كثيراً على ما يرضي الآخرين من صديقته ، لأنه يعلم أنهم سيحكمون من شخصية صديقته على اختياره وذوقه ومستواه ، أي عليه نفسه . لكن لأن الأمر يتعلق تماما بحكم الآخرين ، لم يتجرأ على الاعتماد كثيرا على عينيه ؛ بل على العكس ، راضي حتى ذلك الحين بأن يصيخ السمع إلى صوت الرأي العام ويطابقه معها .

لكن هل يقارن صوت الراي العام بصوت معلم وخبير ؟ كان يتطلع بفارغ الصبر إلى المدخل وعندما شاهد اخيراً خيال الدكتور هافل من خلال الباب المزجج ، تصنع المفاجاة وقال لصديقته أن رجلا شهيرا يريد إجراء مقابلة معه عما قريب لأجل مجلته يدخل بمحض الصدفة إلى المقهى . توجه لملاقاة الدكتور هافل وقاده إلى طاولته . لم تلبث الفتاة بعد أن قطعت حديثها بضعة لحظات من التعارف أن استأنفت الموضوع بثرثرة مستفيضة .

اخذ الدكتور هافل الذي صرفته منذ عشر دقائق المرأة الشبيهة بحصان السبق يتأمل ملياً المراهقة المفردة وهو ما يزال مسترسلا في مزاجه الكئيب . لم تكن المراهقة جميلة جدا لكنها لطيفة جداً ولم يكن ثمة أدنى شك في أن الدكتور هافل (الذي قلنا إنه كالموت ، ويأخذ أي شيء) سيأخذهـا لدى أدنى إيماءة عن طيب خاطر . وفي الحقيقـة كان لديها العديد من القسمات المتميزة بغموضها الجمالي : إذ تغطي جذر أنفها قطرات دقيقة من النمش الذهبي ، يمكن اعتبارها عاهة على بياض الجلد . كما يمكن اعتبارها ايضا جوهرة طبيعية على ذلك البياض؛

كانت ممشوقة إلى ابعد حد وهو ما يمكن تفسيره كعيب بالنسبة للأبعاد الأنثوية المثالية ، إلا أنه يمكن تفسيره ، بالمثل ، كرشاقة لطيفة للطفولة الدائمة في المرأة ؛ كانت ثرثارة جداً وهو ما يمكن اعتباره عادة مستهجنة، لكن يمكن اعتباره ايضا تصرفاً موفقاً يتيح لرفيقها الاسترسال في تأملاته الخاصة دون ان يتعرض لخطر المفاجأة .

راح الصحفي يراقب خفية وبقلق وجه الطبيب ، ولأن هذا الوجه كان يبدو له متاملاً بتجهم (وهو ما لم يكن بشير خير) نادى النادل وطلب ثلاثة أقداح كونياك . احتجت الشابة مدعية انها لا تشرب ، ثم أسهبت في إقناع نفسها بانه يمكنها وعليها أن تشرب ، وادرك الدكتور هافل أن هذه المخلوقة الغامضة جمالياً التي تكشف في تدفق كلماتها كل بساطة روحها ، ستكون على الأرجح إخفاقه الثالث في هذا النهار ، إذا ما قام بمحاولة ، لأن الدكتور هافل الذي كان قديما ملكاً كالموت لم يعد كما كان .

حمل النادل بعد ذلك الكونياك ، فرفعوا جميعا أقداحهم استعدادا لشرب النخب ، وحدق الدكتور هافل في عيني الفتاة الزرقاوين كما يحدق في عينين معاديتين لشخص لا يهمه أمره . وعندما أسر هاتين العينين كما يأسر الأعداء ، بادلهما العداوة ولم يشاهد امامه فجأة إلا مخلوقة غدت سمتها الجمالية واضحة تماما : مراهقة هزيلة ، ذات وجه ملطخ بقذارة النمش ، وثرثارة على نحو غير محتمل .

مع ان هذا التحول جلب السرور للدكتور هافل مثلما جلبت له السرور نظرة الشاب المركزة عليه باستفهام قلق ، إلا ان تلك الأفراح كانت في غاية الضآلة مقابل مرارة الهاوية التي تتكشف فيه . حدث نفسه بأنه قد يكون من الخطأ إطالة هذا اللقاء الذي لن يستطيع أن يجلب له أي سرور ؛ افتتح الكلام إذا والقى أمام الشاب وصديقته عدة نكات لطيفة وعبر عن سعادته لأن الفرصة سنحت له بقضاء إحدى أكثر اللحظات متعة معهما، ثم اعلن ان هنالك من ينتظره واستأذن بالانصراف .

عندما وصل الدكتور هافل إلى الباب المزجج ، ضرب الشاب جبهته وادعى أنه نسي تماما الاتفاق على موعد من أجل إجراء المقابلة . خرج مستعجلا ولحق بهافل في الطريق . فسأله : « إذاً ، كيف وجدتها ؟ »

نظر الدكتور هافل ملياً في عيني الشاب الذي كان إعجابه المتلهف يثير العطف .

وبالمقابل ، كان صمت الدكتور هافل يضايق الصحفي ، بحيث بادر للقول : « أعرف ، إنها ليست جميلة .

ــ قال هافل : بالطبع ليست جميلة » .

طأطأ الصحفي رأسه : « وثرثارة قليلا ، لكن فيما عدا ذلك لطيفة !

ــ قال هافل : أجل ، لطيفة . لكن قد يكون الكلب أيضا لطيفا . وكذلك الكناري أو البط الذي يتخطر في ساحة المزرعة . المهم في الحياة ليس الإستحواذ على أكبر عدد ممكن من النساء ، لأن ذلك ليس إلا نجاحاً ظاهرياً . بل المقصود تنميته حاجة ملحة لنفسه . تذكر جيداً يا صديقي بأن الصياد الحقيقي يلقي الأسماك الصغيرة في الماء » .

أخذ الشاب يعتذر وأكد أنه كانت لديه شكوك جدية بشأن صديقته، ويشهد على ذلك أنه طلب رأي الدكتور هافل .

قال هافل : « لا اهمية لذلك . فلا تشغل نفسك به » .

لكن الشاب كان يواصل الاعتذار وتبرير سلوكه ، وانتهى إلى القول بأن عدد النساء الجميلات الموجودات في الحمة قليل في الخريف وأنه كان مضطراً لأخذ ما يجده .

رد الدكتور هافل : « لا أتفق معك في هذه النقطة . شاهدت هنا العديد من النساء الجذابات جدا . لكنني سأصارحك بأمر . ثمة جمال

ظاهري للمراة التي يعتبرها الذوق القروي خطأ جميلة . ومن ثم يوجد الجمال الحقيقي الشبقي للمراة . لكن المؤكد أن معرفة ذلك الجمال من النظرة الأولى ليس أمراً سهلا . إنه فن » ثم صافح الشاب وابتعد .

٨

اصبح الصحفي يائساً :كان يدرك انه غبي لا علاج له، تائه في صحراء شبابه المترامية (كان يظنها مترامية) ؛ ويدرك أن الدكتور هاقل وضع له علامة سيئة ؛ ويتراءى له دون اي مجال للشك أن صديقته تافهة ومنفرة وغير جميلة . حين عاد للجلوس بجانبها ، توهم بأن جميع رواد المقهى ، مثل النادلين اللذين يذهبان ويجيئان ، يعلمون بذلك وينظرون إليه بشفقة مهينة . طلب الحساب واوضح لصديقته أن لديه عملاً مستعجلا وانه مضطر لمغادرتها . اغتمت وشعر بقلبه ينقبض : فقد كان يعلم تماما بأنه على وشك أن يلقيها ثانية في الماء مثل صياد حقيقي ، ومع ذلك ما زال يحبها في قرارة نفسه (سراً وبنوع من الخجل) .

لم يومض اليوم التالي باي بصيص نور في مزاجه الكئيب ، وحين التقى الدكتور هاقل أمام منشأة الحمة المعدنية برفقة سيدة انيقة ، رزح تحت وطأة احساس بالحسد يكاد أن يشبه تقريبا الكراهية : فتلك المراة جميلة على نحو فاضح ، ومزاج الدكتور هاقل الذي اوما له بفرح حين لمحه منشرح على نحو فاضح ، حتى أن الصحفي اصبح يشعر بنفسه أكثر بؤساً .

قال هاقل : « أقدم لك رئيس تحرير مجلة الحمة : سعى للتعرف علي فقط ليحظى بمقابلتك » .

حين ادرك الشاب انه إزاء امرأة شاهدها على الشاشة ، لم يفتأ ارتباكه يتزايد ، أكرهه هاقل على مرافقتهما ، وراح الصحفي يشرح مشروع مقابلته متلعثماً وأردفه بفكرة جديدة : أن ينشر في مجلته مقابلة مزدوجة للسيدة هاقل والدكتور .

أجاب هاڤل بسرعة : « يا صديقي العزيز ، كانت الأحاديث التي تبادلناها لطيفة وحتى ممتعة بفضلك لكن أخبرني لماذا يترتب نشرها في صحيفة مخصصة للمصابين بالكبد وبالقروح في الأمعاء ؟

ــ تهكمت السيدة هاڤل : أتخيل احاديثك بيسر .

ــ قال الدكتور هاڤل : تكلمنا عن النساء . وجدت في السيد رفيقاً ومحدثاً من الطراز الرفيع ، والصاحب المضيء في أيامي المظلمة » .

التفتت السيدة هاڤل نحو الشاب : « ألم يسئمك ؟ » .

كان الصحفي سعيداً لان هاڤل سماه صاحبه المضيء ، واصبح حسده ممتزجاً بالإمتنان : فالأصح انه هو الذي أسام الدكتور ، وانهى لان يضيف بانه كان على دراية تامة بقلة خبرته وعدم أهميته وتفاهته .

قالت الممثلة : « آه ياعزيزي ، لابد وأنك تباهيت ! » .

دافع الصحفي عن الطبيب « هذا ليس صحيحاً ! انت تقولين ذاك ياسيدتي العزيزة لانك لاتعرفين ماهي المدينة الصغيرة وماهو الجحر الذي اقطنه .

ــ احتجت الممثلة : لكنها مدينة جميلة .

ــ بالنسبة لك أجل ، لانك لاتقيمين فيها إلا لبعض الوقت . أما انا فاقطن فيها وساظل أقطن فيها . دوماً الدائرة نفسها من الناس الذين أعرفهم عن ظهر قلب ، دوماً الناس نفسهم الذين يفكرون جميعاً بالشيء نفسه ، وكل ما يفكرون به ليس إلا حماقات وتفاهات . يجب أن أعيش على وفاق معهم ، شئت ذلك أم ابيت ، وأتكيف معهم ، شيئاً فشيئاً ؛ دون أن أنتبه لذلك. كم هو مرعب ! تصوري أن أصبح واحداً منهم ! تصوري أني قد أرى العالم بعيونهم الحسيرة ! » .

صار الصحفي يتكلم بانفعال متزايد وخيل إلى الممثلة أنها التقطت في كلماته عاصفة الإحتجاج الأبدي للشباب ، كانت مفتونة بذلك ومبلبلة منه فقالت : « كلا ، لا ينبغي أن تتكيف . لاينبغي ! » .

ــ وافق الشاب قائلا : لاينبغي ، نبهني الدكتور البارحة . ينبغي بأي ثمن أن أخرج من الحلقة المفرغة لهذا الوسط . من الحلقة المفرغة لهذه الدناءة وهذه الضحالة . ينبغي أن أخرج منها ، ردد الشاب ، أن أخرج منها .

ــ شرح هافل لزوجته : قلنا إن الذوق الريفي المبتذل يصنع مثلا أعلى مزيفاً للجمال ، وإن هذا المثال هو الجنسي بالأساس ، لابل مضاد للجنسي ، بينما يظل السحر الحقيقي الجنسي والمتفجر خفياً على ذلك الذوق . يوجد حولنا نساء بمقدورهن تعليم اي رجل على اكثر المغامرات الجسدية المدوخة ولا أحد يراهن .

ــ أيد الشاب : وهو كذلك.

ــ استطرد الطبيب : لا احد يراهن ، لانهن يتطابقن مع المعايير ؛ في الحقيقة ، يتبدى السحر الجنسي بغرابته أكثر من انتظامه ؛ بتعبيريته أكثر من معياره ، بشذوذه أكثر من رشاقته المبتذلة .

ــ أيد الشاب : اجل .

ــ قال هافل لزوجته : هل تعرفين فرنتيسكا ؟

ــ قالت الممثلة : أجل .

وتعلمين أن كثيراً من أصدقائي يهبون كل ما يملكون لكي يمضوا ليلة واحدة معها . اراهن على قطع رأسي أن احداً لم يلاحظها في هذه المدينة.

حسناً ، أخبرني ياصديقي ، انت الذي تعرفها ، هل لاحظت من قبل أن فرنتيسكا امرأة غير عادية ؟

ــ قال الشاب : لا ، بصدق ، لا ! لم يخطر على بالي أبداً النظر إليها كامرأة !

ــ قال الدكتور هافل : لايدهشني ذلك . فأنت لم تكن تجد فيها الرقة الكافية ولا الثرثرة الكافية . وليس لديها نمش !

ــ قال الشاب بهيئة بائسة : وهو كذلك . ادركت البارحة إلى اي مدى انا احمق .

ــ استطرد هافل : لكن هل لاحظت احياناً مشيتها ؟ هل لاحظت من قبل أن ساقيها تتكلمان بفصاحة حين تمشي ؟ يا صديقي ، لو كنت تسمع ما تقوله ساقاها ، لاصطبغ وجهك بالأحمر ، ومع ذلك أنت فاسق لعين كما اعرفك » .

ـ ٩ ـ

قالت الممثلة لزوجها حين أصبحا وحيدن : « تحب كثيراً الاستهزاء بالساذجين .

ــ قال : تعلمين أن هذا بالنسبة لي علامة مزاج طيب . وأقسم لك انها المرة الأولى التي يحصل لي فيها ذلك منذ وجودي هنا » .

لم يكن الدكتور هافل يكذب هذه المرة ؛ فعندما دخلت الحافلة إلى المحطة في الصباح ، وشاهد عبر زجاج النافذة زوجته الجالسة ، ثم حين شاهدها تقف على باب الحافلة مبتسمة ، شعر بنفسه سعيداً ، وبما ان الأيام السالفة تركت فيه مخازن البهجة سليمة بكاملها فقد عبّر عن فرحه طيلة النهار بطريقة طائشة قليلا . تنزها سوية تحت القناطر

وتلذذا بأقراص الحلوى وذهبا إلى فرنتيسكا ليستمعا عندها إلى التعليقات حول أحاديث ابنها الأخيرة ، قاما بنزهــة مع الصحفي وقد ذكرناها في الفصل الســابق وسخرا من النزلاء المرضى الذين يقومــون بنزهتهم الصحية في شوارع الحمة . لاحظ الدكتور هاڤل بهذه المناسبة أن بعض المارة يحدقون في الممثلة ، وقد تيسر له التأكد أنهم توقفوا للنظر إليهــا حين التفت إلى الوراء .

قال هاڤل : « لقد عرفوك . الناس هنا لا يدرون ماذا يفعلون لذلك يذهبون إلى السينما بولع .

ــ هل يزعجك ذلك ؟ سألت الممثلة التي كانت تعتبر الإعلان الملازم لمهنتها بمثابــة ذنب ، لأنها مثل جميــع أولئك الذين يعشقون الحب الحقيقي ، كانت تتوق لحب هادىء وخفي .

ــ قال هاڤل : بالعكس » وضحك ، ثم تسلياطويلا بلعبة صبيانية ، وهمــا يحاولان أن يحزرا المــارة الذين سيتعرفون عليها أو لن يتعرفوا عليها ، ويتراهنان على عدد الأشخاص الذين سيتعرفون عليها في الشارع التالي . وكان الناس يلتفتون إلى الوراء ، سادة عجائز وفلاحون وصبية، وأيضاً عدد من النساء الجميلات اللواتي كن يتعالجن في هذا الفصل .

كان هاڤل الذي يعيش مهملا على نحو مهين منذ بضعة أيام يبتهج من اهتمام المارة ويرغب في أن تسلط عليه أيضا أشعة الانتباه بقــدر المستطاع ؛ فيطوق خصر الممثلة ، ويهمس في أذنهــا بكل أنواع الغــزل والفجور ، وكانت بالمقابل مشــدودة إليه وتتطلع إلى وجهــه بعينيها الفرحتين . وأصبح هاڤل بتأثير الأنظار الموجهة إليه يشعر انه يستعيد وجوده المرئي المفقود ، وأن قسماته الغامضة غدت محسوسة وواضحة ، وصار مزهوا من جديد بالفرح الذي يمده به جسده وخطواته وكل كيانه .

كانا يحاذيان هكذا الواجهات الزجاجية للشارع الرئيسي متحاضنين بحب ، حين لمح الدكتور هاڤل في متجر لوازم الصيد المسدة الشقراء

التي عاملته في الأمس بمنتهى الازدراء ، كانت في الحانوت الفارغ وتثرثر مع البائعة . قال فجأة لزوجته المندهشة « تعالي ، إنك أروع مخلوقة اعرفها ؛ أود تقديم هدية لكِ » ثم أمسك يدها وجذبها إلى المتجر .

سكتت المرأتان ، وتأملت المسدة طويلا الممثلة ، ثم باختصار هاقل، ثم من جديد الممثلة ، ثم هاقل الذي لاحظ ذلك بارتياح ، لكن دون أن يخصها بنظرة واحدة استعرض بسرعة السلع المعروضة ؛ أخذ يتفحص قرون الأيل ومحافظ الصيد والقدارات والمناظير والقصبات والكمامات .

سألت البائعة : « ماذا تريدان ؟

ـ قال هاقل : لحظـة » ثم انتهى إلى اكتشاف صفارات تحت زجاج منضدة البائعة فأشار إليها بإصبعه . ناولته البائعة إحداها ، فوضعها هاقل بين شفتيه وصفر ، ثم تفحصها ثانية من كل الجهـات وصفر مرة أخرى بلطف . قال للبائعة « ممتاز » ووضع أمامها الخمس كورونات المطلوبة . ناول الصفارة إلى زوجته .

كانت الممثلة ترى في هذه الهدية إحدى التصرفات الصبيانية التي تحبها لدى زوجها، وتهريجاً يستمد معناه من لغوه، فشكرته بنظرة حب. لكن هاقل ارتأى أن ذلك ليس كافيا وقال لها بصوت خافت : « أهكذا تشكرينني على هديـة بمثل هـذا الجمال ؟ » فقبلته الممثلة . تابعتهما المرأتان بعيونهما وتعقبتاهما ايضا بنظراتهما حين خرجا من المتجر .

بعد هذا تابعا من جديد نزهتهما في الشوارع والحديقة العامة ، وقضما أقراص الحلوى ، وصفرا بالصافرة ، وجلسا على مقعد وتراهنا ، وهما يتسليان بالتحزر عن عدد المارة الذين كانوا على وشك الالتفات إلى الوراء . وحين دخلا في المســاء إلى المطعم ، كادا يصطدمان بالمرأة الشبيهة بحصان السباق . ألقت عليهما نظرة مندهشة ، طويلة عـلى الممثلة ومختصرة على هاقل ثم من جديد على الممثلة ، وحين نظرت ثانية

إلى هاڤل حيته رغماً عنها . حياها هاڤل بدوره ، وسأل زوجته بصوت خافت وهو ينحني على أذنها فيما إذا كانت تحبه . رمقته الممثلة بنظرة عاشقة مديدة وداعبت وجنته .

جلسا بعد ذلك إلى طاولة ، وتناولا وجبة خفيفة (لأن الممثلة كانت تراعي حمية زوجها بدقة) ، وشربا النبيذ الأحمر (الوحيد الذي يحق للدكتور هاڤل شربه) ثم اعترت السيدة هاڤل برهة تأثر . مالت نحو زوجها وأمسكت يده وقالت له بأن هذا النهار هو من أجمل النهارات التي عرفتها ؛ واعترفت له بأنها شعرت بالحزن الشديد حين غادر للاستشفاء ؛ اعتذرت ايضا مرة أخرى لأنها كتبت له رسالة حمقاء من امرأة غيورة وشكرته لأنه تلفن لها وطلب منها اللحاق به ؛ قالت بأنه سيسعدها دائما المجيء لمرافقته حتى لو لم تره إلا دقيقة واحدة ؛ ثم شرحت بإسهاب ان الحياة مع هاڤل هي بالنسبة لها عذاب وشقاء في كل اللحظات ، كما لو كان هاڤل على وشك الفرار منها دوما ؛ لكن لهذا السبب بالذات ، كان كل يوم بالنسبة لها فرحا متجددا ، واستئنافا جديدا للحب ، وهبة جديدة .

ثم توجها سوية إلى حجرة الدكتور هاڤل وبلغ فرح الممثلة ذروته بسرعة .

١٠

بعد اليوم التالي ، ذهب الدكتور هاڤل إلى جلسة المعالجة بالماء ووصل ثانية متأخراً ، لأنه لم يصل أبداً في الموعد المحدد حقاً . واستقبلته المسدة الشقراء نفسها ؛ لكنها لم تبد له هذه المرة وجهاً عبوساً ، ابتسمت له ونادته بالدكتور ، فاستنتج هاڤل من ذلك أنها ذهبت للاطلاع على بطاقته في مكتب المنشأة او أنها استخبرت بشأنه . لاحظ هذا الاهتمام برضى وذهب ليخلع ملابسه خلف حاجز الحمام ، وحين أخبرته المسدة أن حوض الحمام امتلأ ، خرج مبرزاً سرته بفخر وتمدد في المغطس مبتهجاً .

أدارت المسدة الصنبور على لوحة القيادة وسألت هاقل فيما إذا كانت زوجته ما تزال معه . رد هاقل بالنفي فسألته المسدة فيما إذا كان الناس سيشاهدونها عما قريب في فيلم جميل . رد هاقل بالايجاب، ورفعت المسدة ساقه اليمنى . ولأن الدفق كان يدغدغ باطن قدمه ابتسمت المسدة وقالت بأن الدكتور يبدو ذا جسد حساس جداً . ثم ظلا يثرثران وعلق هاقل بأن الحياة مضجرة هنا . ابتسمت المسدة ابتسامة معبرة وقالت بأن الدكتور يعرف كيف يتدبر أمره لكي لا يضجر. وحين انحنت إلى الأمام لكي تركز الفوهة على صدره وحين أطرى هاقل نهديها اللذين شاهد جيداً الجزء الأعلى منهما في الوضعية التي ألفى نفسه فيها ، أجابت المسدة بأن الدكتور شاهد من قبل أجمل منهما حتماً .

استنتج هاقل من هذه الأحاديث أن الإجازة القصيرة لزوجته قد غيرته تماماً في نظر هذه الفتاة اللطيفة ذات العضلات ، وانه اكتسب فجأة سحراً والأصح : أن جسده غدا بالنسبة لها فرصة للارتباط سراً بممثلة مشهورة ولتصبح مثل امرأة ذائعة الصيت تجذب إليها انظار الجميع . ادرك هاقل أن كل شيء مباح له في الحال ، وانه موعود بكل شيء ضمناً ومقدماً .

لكن وحسب ما يحدث في الحياة غالباً ، حين نكون مسرورين نرفض عن طيب خاطر وبعجرفة الفرص التي تسنح لنا ، لكي نؤكد ذواتنا في امتلائنا المغتبط . كان يكفي أن تتخلى الفتاة الشقراء عن كبريائها المهين وأن يصبح صوتها رقيقاً ونظرتها متواضعة لكي يفقد الدكتور هاقل رغبته بها .

توجب عليه بعد ذلك التمدد على بطنه والاحتفاظ بذقنه خارج الماء واستمتع بالدفق الشديد يرشه من رأسه حتى قدميه . كانت هذه الوضعية تبدو له وضعية دينية للخشوع والشكر : كان يفكر في زوجته

ومقدار جمالها ومقدار حبه لهـا ومقدار حبها له ، وانها كانت نجمته السعيدة التي تكسبه حظوة المغامرة والفتيات ذوات العضلات .

وعندما انتهى التدليك ونهض للخروج من المغطس ، بدت له المسدة ذات البشرة الدبقة بجمال في غاية الكمال وغاية اللذة ، ونظرتها مذعنة منتهى الخضوع ، وأن لديه رغبة بالانحناء في الاتجاه الذي يتوقع وجود زوجته فيه عن بعد . لأنه كان يخال أن جسد المسدة واقف على اليد الضخمة للممثلة وأن تلك اليد تناوله الجسد كرسـالة حب وكقربان . وراودته فكرة بأنه يهين زوجته إذا رفض هذا القربان ورفض هذه اللفتة الحنونة . ابتسم للشابة المتعرقة وقال لها بأنه حجز سهرته لها وأنـه سينتظرها في فورش الساعة السابعة . وافقت الشابة وتدثر هاقل بمنشفة الحمام الكبيرة .

حين ارتدى ملابسه ورتب شعره ، تأكد أن مزاجه منشرح للغاية. كان يرغب بالثرثرة فتوقف عند فرنتيسكا ، وقد جاءت هـذه الزيارة في أوانها لانها هي ايضا كانت في حالة ممتازة . راحت تتكلم عن كل شيء ولا شيء ، وتنتقل بين شتى الأحاديث المتهافتة ، لكنها تعود دوماً الى الموضوع الذي عالجاه عند لقائهما الأخير : عمرها ؛ فقـد كانت تحـاول بعبارات مبهمة الإشارة إلى أنه لا ينبغي الرضوخ لعـدد السنين وأن عدد السنين لا يشكل عائقاً دوماً ، وأنه لإحساس في غاية الروعة حين يكتشف المرء فجأة أنه يستطيع التكلم بهدوء كند مع أناس أكثر شباباً . قالت فجأة : « وليس الأطفال كل شيء . انت تعلم مقدار حبي لأطفالي، لكن ثمة امور أخرى ايضاً في الحياة » .

لم تخرج افكار فرنتيسكا للحظة عن نطاق التجريـد الغامض ، وبالنسبة لأي شخص غير خبير لا يمكن أن يكون ذلك سوى ثرثرة عابرة. لكن هاقل كان خبيراً واكتشف المضمون الذي يتوارى وراء الثرثـرة . استنتج من ذلك أن سعادته الشخصية ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من السعادات وقد تضاعف ابتهاجه لأن له قلباً نبيلا .

١١

أجـل ، كان الدكتور هاڤل يرى الصواب : ذهب الصحفي إلى الدكتورة في اليوم نفسه الذي مدحها فيه معلمه . أظهر جرأة مفاجئـة بعد بضعة عبارات وقال لها بأنـه معجب بها ويود رؤيتها . أجابتـه الدكتورة بصوت متهدج انها أكبر منه سناً ولديها أطفال . شعر الصحفي من هذه الاجابة بازدياد ثقته في نفسه ولم يجد أية صعوبة في العثور على الرد المناسب :أكد أن الدكتورة تتمتع بجمال خفي أثمن من الجمال المبتذل ؛ قرظ مشيتها وقال أن ساقيها تتكلمان حين تمشي .

وبعد يومين ، حين كان الدكتور هاڤل يصـل متمهلاً إلى فورش ويلمح من بعيد الفتاة الشقراء ذات العضلات ، كان الصحفي يتمشـى بلهفة في ملحقه الضيق ؛ كان شبه واثق من نجاحه ، لكنه يخشى احتمال الخطأ أو الصدفة التي قد تحجبه عنها ؛ كان يفتح بين الفينة والأخرى الباب لينظر نحو الأسفل إلى قفص الدرج ، شاهدها أخيراً .

كان الاهتمام الذي ارتدت به الدكتورة ملابسها وتجملت ينسـي تقريباً المظهر المألوف لهذه المرأة بالبنطـال الأبيض والقميص الأبيض ؛ اخذ الشاب يقول لنفسه في غمرة اضطرابه أن السحر الجنسي لفرنتيسكا الذي لم يكن حتى ذلك الحين إلا هاجساً ، أصبح الآن حاضراً أمامه ، ومفضوحاً على نحو فاحش تقريباً ، وشعر أن الخجـل الذي يولـد الاحترام يستولي عليه ؛ ولكي يقهره ، أمسك الدكتورة من ذراعيها حتى قبل أن يغلق الباب وبدأ يقبلها بشدة . جفلت من هذه المفاجأة ورجته أن يدعها تجلس . وافق على ذلك ؛ لكنه جلس في الحال عند قدميهـا وقبّل جواربها فـوق الركبتين . وضعت يدهـا في شـعره وحاولت إبعـاده برفق .

لنرهف السمع إلى ما كانت تقوله له : بادىء ذي بدء ، رددت عدة مرات : « يجب أن تكون عاقلا ، يجب أن تكون عاقلا ، عدني أن تكون

عاقلا » عندما قال لها الشاب : « أجل ، أجل ، سأكون عاقلا » وهــو يقرب شفتيه إلى أعلى فوق النايلون الخشن ، قالت : « لا ، لا ، ليس هنا ، لا ، لا » وحين وضعهما إلى أعلى أيضاً ، بدأت فجأة ترفع الكلفة معه وأكدت : « أوه ، أنت مجنون ، أوه أنت مجنون ! » .

هذا التأكيد قرر كل شيء . لم يصادف الشاب بعد أية مقاومة . كان مذهولا ؛ مذهولا من نفسه ومن سرعة نجاحه ، مذهولا من عبقرية هاڤل التي أصبحت ترافقه وتتغلغل فيه ، مذهولا من عري المرأة الراقدة تحته في احتضان عاشــق . كان يريد أن يصير معلماً ، كان يريد أن يصبح ماهراً ، كان يريد البرهنة على شبقه ونهمه . نهض بخفة لكي يتفحص بنظرة شرهة جسد الدكتورة الممدد وتمتم « إنك جميلة ، إنك بهيــة . . . » .

اخفت الدكتورة بطنها بيديها وقالت :«أمنعك من السخرية مني»

ــ ماذا تقصدين بهذا ! كأنني كنت أسخر منك ! أنت بهية !

ــ قالت وهي تضمه إليها لكي لا يراها : لا تنظر إلي . لديها طفلان. هل تعلم ذلك ؟

ــ قال الشاب دون أن يفهم : طفلان ؟

ــ هذا واضح . لا أريدك أن تنظر إلي » .

هذه الملاحظة أخمدت نوعاً ما اندفاعة الشاب الأولية ولم يهتد إلى مستوى الإثارة المناسب إلا بجهد ؛ ولكي يبلغه على نحو أفضل ، حاول تغذية النشوة الهاربة بالكلمات وهمس في أذن الدكتورة بأنه جميل أن تكون معه هنا ، عارية ، عارية تماماً ، عارية تماماً .

كانت الدكتورة تقول له : « أنت لطيف ، أنت في غاية اللطف » .

تكلم الشاب ثانية عن عري الدكتورة وسألها فيما إذا كان يثيرها ، هي أيضاً ، أن تكون معه هنا عارية .

قالت الدكتورة : « إنك طفل . طبعاً يثيرني ذلك » لكنها أضافت بعد هنيهة صمت أن كثيراً من الأطباء شاهدوها من قبل عارية لدرجة أن ذلك أصبح تافهاً . قالت : « إنهم أطباء أكثر من كونهم عاشقين » ودون أن توقف حركاتهما العاشقة راحت تتكلم عن ولادتها العسيرة : « ذلك يستحق العناء » وقالت كنتيجة : « لدي طفلان رائعان . رائعان ، رائعان ! » .

بدات الإثارة المكتسبة بمشقة تبارح الصحفي مرة أخرى ، كان يشعر فجأة انه في المقهى ويثرثر مع الدكتورة أمام قدح شاي ؛ إنه ناقم عليها ؛ أصبحت حركاتها غاضبة فحاول استمالتها بعبارات أكثر حسية : « حين ذهبت لرؤيتك آخر مرة ، هل كنت تعلمين باننا سنتضاجع ؟

ـ وانت ؟

ـ قال الصحفي : كنت أرغب بذلك ، كنت أرغب بذلك كثيراً ! » وحَمَّلَ كلمة « أرغب » شغفاً بليغاً .

همست له الدكتورة : « أنت تشبه ابني ، أيضاً يود الحصول على كل شيء ، أسأله دوماً : ألا ترغب بساعة مع فوارة ماء ؟ » .

هكذا كانا يتضاجعان ، الدكتورة تتكلم وهي مفتونة بحديثهما .

حين جلسا بعد ذلك على الأريكة جنباً إلى جنب ، عاريين ومتعبين، داعبت الدكتورة شعر الصحفي وقالت له : « لديك خصلة مثله .

ـ من هو ؟

ـ ابنـي .

ـ علق الصحفي بلوم خجل : تتكلمين طيلة الوقت عن ابنك .

ـ قالت الدكتورة بفخر : كما تعلم إنه أثير أمه ، أثير أمه » .

ثم نهضت وارتدت ملابسها . وفجاة راودها في حجرة الشاب الصغير إحساس بأنها شابة ، فتاة في ريعان الصبا ، وشعرت بنفسها معافاة على نحو ممتع . حين غادرت ، ضمت الصحفي إلى صدرها ، كانت عيناها طافحتين بالامتنان .

١٢

بدأ نهار جميل بالنسبة للدكتور هافل بعد ليلة جميلة . تبادل أثناء الافطار بضعة كلمات واعدة مع المرأة الشبيهة بفرس السباق ، وحين عاد من علاجه في الساعة العاشرة كانت تنتظره في حجرته رسالة حب من زوجته . ذهب بعد ذلك التنزه تحت القناطر في موكب المرضى ، كان يرفع إلى شفتيه طاسة مليئة بماء النبع وينشرق بالغبطة . غدت عيون النساء اللواتي كن يعبرن بجانبه قبل بضعة أيام دون أن يلاحظنه تحدق فيه ، وكان ينحني بخفة لتحيتهن . حين لمح الصحفي ، اقترب منه لمخاطبته بمرح : « مررت بعيادة الدكتورة منذ قليل وبحسب بعض العلامات التي لا يمكن أن تفوت عالم نفس جيد ، لدي إحساس بأنك نجحت ! » .

لم تكن لدى الشاب رغبة أعز من الافضاء بما لديه لمعلمه ، لكن الطريقة التي انقضت بها سهرة الأمس كانت تتركه متردداً قليلاً ، فهو ليس واثقاً تماماً من أن تلك السهرة كانت رائعة كما يجب ، ولا يعلم فيما إذا كان تقرير دقيق وأمين سيرفع من شأنه في نظر الدكتور هافل أم سيحط منه ، وراح يتساءل عما يجب البوح به أو إخفاؤه عن الطبيب.

لكنه حين رأى وجه هاڤل مشرقاً بالوقاحة والمرح ، لم يتمالك نفسه من إجابته بالنبرة نفسها المرحة والوقحة ، وقرظ بعبارات حماسية المرأة التي نصحه بها الدكتور هاڤل . قال بأنها فتنته منذ أن بدأ ينظر إليها بعينين مختلفتين عن عيون سكان الريف ، وحكى أنها وافقت بلطف على المجيء إلى منزله وأنها منحت نفسها بسرعة فائقة ..

حين بدأ الدكتور هاڤل يطرح عليه الأسئلة المحددة والمفصلة ، لكي يحلل الأمر بكل دقائقه ، اضطر الشاب في إجاباته طوعاً أو كرهاً على مقاربة الحقيقة أكثر فأكثر ، وانتهى إلى الاعتراف بأنه رغم رضاه التام من كل الجوانب ، لكن المحادثة التي أجرتها الدكتورة معه أثناء ممارسة الحب أوقعته بشيء من الارتباك .

كان الدكتور هاڤل مهتماً جداً وحين كرر الصحفي على مسامعه المحادثة بالتفصيل ، تحت إلحاحاته ، دعم روايته بعلامات تعجب حماسية « ممتاز ! تمام ! » « آه ، يا لقلب الأم الأبدي ! » و : « أحسدك يا صديقي ! » .

في هذه اللحظة ، جاءت المرأة الشبيهة بفرس السباق لتقف أمام الرجلين . انحنى الدكتور هاڤل فصافحته المرأة الطويلة . قالت : « اعذرني ، إنني متأخرة قليلاً !

ـ قال الدكتور هاڤل : لا أهمية لذلك . لدي حديث هام جداً مع صديقي . أرجوك أن تسمحي لي بلحظة ، أود إنهاء هذه المحادثة » .

ودون أن يترك يد المرأة الطويلة ، التفت إلى الصحفي : « ما قلته لي للتو يفوق كل آمالي . لأنه يجب أن تفهم أن اللذات الجسدية المهملة في صمتها هي ذات رتابة كئيبة ، امرأة تقلد الأخرى في المتعة وجميعها تنسى في جميعها . ولكننا إذا كنا نندفع في متع الحب فذلك لكي نتذكرها لكي تزين نقاطها المضيئة شريط شبابنا المشع في شيخوختنا ، لكي تحافظ

على ذاكرتنا في اتقاد ابدي ! واعلم يا صديقي أن كلمة وحيدة واضحة في هذه الحالة الآنفه من كل الحالات ، يمكن أن تضيئها بنور يجعلها لا تنسى. يقول الناس عني بأنني هاوي جمع النساء . وفي الحقيقة إنني هاوي جمع كلمات على الأخص . صدقني بأنك لن تنسى أبداً سهرة الأمس ، وستكون سعيداً بها طيلة حياتك ! » .

ثم أومأ برأسه إلى الشاب ، وابتعد يبطء وهو يمسك يد المرأة الطويلة الشبيهة بالفرس على امتداد القناطر .

* * *

المحــاورة

الفصل الأول

قاعـة المناوبـة :

ضمت قاعة المناوبة (في قسم ما من مشفى ما في مدينة ما) خمسة شخصيات وجدلت تصرفاتهم ونقاشاتهم في حكاية ساخرة ، وبالأحرى مرحـة .

يوجد فيها الدكتور هافل والممرضة إليزابيت (كلاهما بمارسان وظيفتهما الليلية) ويوجد طبيبان آخران (قادتهما إلى هنا حجة متهافتة تقريباً للثرثرة والشرب بضعة زجاجات سورية) : المدير بجمجمته الصلعاء ودكتورة جميلة في حوالي الثلاثين من عمرها تعمل في قسم آخر وتعرف كل المشفى عنها أنها تنام مع المدير .

(المدير متزوج طبعاً وينطق الآن بعبارته الأثيرة ، التي لا بد لهـا من أن تؤكد في آن معاً حس الفكاهة لديه ومقاصده : « زملائي الأعزاء ، أكبر تعاسة بالنسبة للرجل هي زواج سعيد . فلا أمل بالطلاق ») .

بالإضافة إلى هذه الشخصيات الأربعة ، توجد شخصية خامسة ، ولكنها والحق يقال ليست هنا لأنهم ارسلوها لاحضار زجاجة جديدة باعتبارها الاصغر سناً . وثمة نافذة ، وهي مهمة لأنها مفتوحة على ظلام الخارج وتترك المجال باستمرار لدخول القمر مع الصيف الدافيء والمعطر إلى الحجرة . وأخيراً ، توجد البهجة التي تكشفها الثرثرة اللطيفة عن كل شيء ، لا سيما عن المدير الذي يصغي إلى هذياناته الشخصية بأذنين عاشقتين .

بعد ذلك بقليل (وهي اللحظة التي تبدأ فيها قصتنا) يسود توتر ما : شربت إليزابيت أكثر مما يليق بممرضة تمارس عملها ، وفوق ذلك تظهر حيال الدكتور هافل غنجاً مغرياً يثيره ويؤدي إلى تنبيه حاد من جانبه .

تنبيه الدكتور هافل :

« لا أفهمك يا عزيزتي إليزابيت . في كل الأيام تتخبطين في جراح متقيحة ، تحقنين بالإبر الأرداف المتصلبة للعجائز ، وتعطين الحقن الشرجية وتفرغين الأحواض . منحك القدر فرصة تحسدين عليها لفهم الطبيعة الشهوانية للرجل في كل بطلانها الميتافيزيقي . لكن حيويتك ترفض الاذعان للصواب . ليس بوسع شيء زعزعة إرادتك العنيدة من أن تكون جسداً وجسداً لا غير . يتحدى نهداك الرجال على مسافة خمسة أمتار ! أشعر بالنشوة لرؤيتك تمشين وحسب ، بسبب الحلزونات الدائمة التي يرسمها ردفك الذي لا يتعب . ابتعدي قليلا بحق الشيطان! نهداك كليا الوجود كالقدر ! إنك الآن متأخرة عشر دقائق عن الحقن ! » .

الدكتور هافل كالموت يستحوذ على كل شيء .

سأل المدير حين خرجت إليزابيت من قاعة المناوبة (مهانة بوضوح) وقد حكم عليها بحقن ردفين عجوزين : « من فضلك يا هافل ، هل بوسعك أن تشرح لي لماذا تطرد بمنتهى الاصرار تلك البائسة إليزابيت ؟ » .

شرب الدكتور هافل جرعة وأجاب : « أيها المدير ، لا ينبغي أن تعاتبني . ليس ذلك لأنها قبيحة أو لأنها لم تعد شابة كثيراً . صدقني ! حصلت سابقاً على نساء أكثر قبحاً وأكبر سناً بكثير .

— أجل ، أفهمك ، أفهمك : انك كالموت ، تستحوذ على كل شيء ولكن ما دمت تستحوذ على كل شيء ، لماذا لا تستحوذ على إليزابيت ؟

ـ قال هاقل : ذلك بلا ريب لأنها تفصح عن رغبتها بطريقة معبرة لدرجة أن هذا يشبه الأمر . انت تقول بأنني كالموت حيال النساء لكن الموت لا يحب أن يصدر إليه أحد الأوامر » .

النجاح الأعظم للمدير :

« أجاب المدير : « أعتقد انني أفهمك . عندما كنت أصغر سناً من الآن ببضع سنوات ، تعرفت الى فتاة كانت تنام مع كل الرجال ولأنها كانت جميلة ، قررت الحصول عليها. تصور ، لم ترغب بي ! كانت تنام مع زملائي ومع السائق والطباخ وحمال الجثث ، وكنت الوحيد الذي لا تنام معه . هل بوسعك تخيل هذا ؟ .

ـ علقت الدكتورة : طبعاً .

ـ استطرد ، بتبرم ، المدير الذي كان يخاطب عشيقته باحترام أمام الناس : إذا أردت معرفة ذلك ، في تلك الفترة ، كنت قد حزت على الشهادة منذ بضع سنوات فقط وقد حققت الكثير من النجاحات . كنت مقتنعا أن كل امرأة سهلة المنال ، وقد أفلحت في البرهنة على ذلك مع نساء منيعات جداً . وكما ترين ، اخفقت مع تلك الفتاة رغم أنها سهلة جـــداً .

ـ قال الدكتور هافل : بحسب معرفتي بك ، لديك بالتأكيد نظرية لتفسير ذلـك .

ـ رد المدير : اجل . الشهوة ليست فقط الرغبة بالجسد ، لكنها في مقياس مماثل ، الرغبة في الشرف . يصبح الرفيق الذي حصلنا عليه والذي يحرص علينا ويحبنا مرآتنا ، إنه مقياس اهميتنا وقيمتنا . مـن وجهة النظر تلك ، لم تكن عاهرتي الصغيرة مهمة سهلة . عندما تنام امرأة مع كل الرجال تكف عن الإيمان بأن امرأ تافهاً مثل ممارسة الحب يمكن أيضا أن يحظى بأهمية ما . تسعى إذاً إلى الشرف الشهواني الحقيقي من

الجهة المقابلة . إن رجلاً تمناها لكنها ترفضه هو وحده الذي كان يمكن أن يقدم لعاهرتي الصغيرة مقياس قيمتها . وبما أنها كانت تريد أن تصبح في نظره الأفضل والأجمل ، فقد أظهرت نفسها قاسية لأبعد حد ومتشددة حين ترتب اختيار ذاك الرجل الأوحد الذي ستشرفه برفضها . اختارتني في النهاية وأدركت أن ذلك كان شرفاً استثنائياً ، واليوم أيضاً أعتبر هذا بمثابة نجاحي الغرامي الأعظم .

— قالت الدكتورة : لديك موهبة مدهشة لتحويل الماء إلى خمر .

— قال المدير : إنك مهانة لأنك لست التي أعتبرها بمثابة نجاحي الأعظم ؟ يجب أن تفهميني . مع انك امرأة فاضلة ، فإنني رغم ذلك لست بالنسبة لك (وليس بوسعك أن تعلمي إلى أي مدى يؤسفني هذا) الأول ولا الأخير ، بينما كنت كذلك بالنسبة لتلك العاهرة الصغيرة . صدقيني ، أنها لم تنسني أبداً ، وما زالت تتذكر بحنين حتى اليوم أنها رفضتني . من جهة أخرى ، لم أرو هذه الحكاية إلا لإظهار التشابه مع موقف هافل إزاء إليزابيت » .

تقريظ الحرية :

قال هافل : « يا إلهي أيها المدير ، أنت لن تذهب رغم كل شيء إلى حد المطالبة بأن ابحث في إليزابيت عن معيار قيمتي الإنسانية .

— قالت الدكتورة متهكمة : طبعاً لا ! لقد شرحت لنا ذلك من قبل. موقف إليزابيت المثير يبدو لك بمثابة امر وتريد الاحتفاظ بوهم انك تختار بنفسك النساء اللواتي تنام معهن .

— قال هافل متأملا : كما تعلمين ، بما اننا نتكلم بصراحة ، ليس الأمر هكذا تماماً . في الحقيقة ، كنت أريد فقط أن أكون خفيف الدم حين قلت بأن ما يزعجني هو موقف إليزابيت المثير . بصراحة ، حظيت بنساء

متيرات أكثر بكثير وكان يلائمني تماماً أن يكن مثيرات ؛ لأن الأحداث لم تكن تطـول .

ــ هتف المدير : إذاً ، لماذا بحق الشيطان لم تحصل على إليزابيت؟

ــ ليس سؤالك أيها المدير في العبث الذي ظننته في البدايــة ، لأنني أرى أنه من العسير جداً الاجابة عليه . ولكي أكون صريحاً لا أدري لأي سبب لم احصل على إليزابيت . حصلت على نساء أكثر قبحاً وأكبر سناً وأكثر إثارة . ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك أنني سأنتهي حتماً إلى الحصول عليها . هذا ما كان سيفكر به جميع الاحصائيين . وكانت كل آلات الأتمتة ستستنتج رأياً في هذا المعنى . وانتبه ، لذلك بلا ريب لم احصل عليهـا . أردت بلا ريب أن أقول لا للضرورة ، أن أعرقــل مبدأ السببية . وإفساد قابلية التوقع الكئيبة للسيرورة الشاملة بنزعة حرية الاختيار .

ــ هتف المدير : لكن لماذا اخترت إليزابيت لأجل هذه الغاية ؟

ــ بالضبط لأنه لا يوجد سبب . لو كان يوجد سبب ، لاستطاع المرء سلفاً اكتشافه وتحديد سلوكي مسبقاً . وبالضبط في هذا الغياب للسبب يوجد ذلك الجزء من الحرية الذي يلائمنا والذي علينا أن نتجه نحوه بلا كلل لكي يظل ، في هذا العالم من القوانين القاسية ، شيء من الفوضى الانسانية . زملائي الأعزاء ، لتحيا الحرية ! » قال هافل ورفع كأسه بحزن لكي يشرب النخب .

مدى المسؤولية :

في هذه اللحظة ظهرت في الحجرة زجاجة جديدة فتركز عليها في الحال كل انتباه الأطباء الحاضرين . كان فليسشمان ، الشاب الجميل المتعثر ، يقف في الباب وبيده زجاجة ، وهو طالب طب يتمرن في القسم . وضع (بهدوء) الزجاجة على الطاولة ، بحث (طويلا) عن مفتاح السدادات ،

بعد ذلك وتد (ببطء) المفتاح في السدادة وغرزه فيها (متأملا) حتى انتهى إلى استخراجها (حالاً) . الأقواس السابقة مخصصة لإظهار بلادة فليسشمان ، تلك البلادة التي كانت تثبت ، بدلاً من البلاهــة ، الإعجاب اللامبالي الذي كان ينظـر به طالب الطب بتأن إلى حقيقــة وجوده ، مهملاً التفاصيل التافهة للعالم الخارجي .

قال الدكتور هافل : « ليس لهــذا أي معنى . فلست انا الذي أرفض إليزابيت ، بل هي التي لا تريدني . وا أسفاه ! إنهــا مولهة بفليسشمان .

ــ بي ؟ » رفع فليسشمان رأسه ، ثم ذهب بخطوات واسعة لاعادة مفتاح السدادات إلى مكانه ، وعاد بعد ذلك إلى قرب الطاولة الواطئة وصب النبيذ في الكؤوس .

« قال المدير موافقاً هافل على رأيه : إنك طيب ، فالجميع يعلم بذلك إلا انت . ومنذ اللحظة التي وضعت فيهــا قدميك في القسم ، أصبحت لا تعاشر . وما تزال على هذه الحال منذ شهرين . »

نظر فليسشمان (طويلاً) إلى المدير وقال : « صدقاً لا اعلم شيئاً عن ذلك » وأضاف : « على أية حال ، هذا لا يهمني .

قال هافل متظاهراً بصرامة عنيفة : وكل أحاديثك النبيلة ؟ وكل استنتاجاتك حول احترام المرأة ؟ أنت تؤلم إليزابيت ولا يهمك هذا ؟

ــ قال فليسشمان : اشعر بالشفقة حيال النساء ولا يمكنني ابدا إيذاءهن عمداً . لكن ما أقوم به عن غير عمد لا يهمني لأنه لا يسعني شيء حياله وبالتالي لست مسؤولا عنه . »

عادت إليزابيت بعد ذلك . كانت قد قررت بلا ريب ان افضل ما تقوم به هو نسيان الاهانة والتصرف كما لو انه لم يحدث شيء ، بحيث انها

كانت تتصرف بتكلف غريب . قدم لها المدير كرسياً وملأ كأسها . « اشربي يا إليزابيت ! وانسي كل الهموم !

ــ أجابت إليزابيت بابتسامة عريضة : بالتأكيد » وافرغت كأسها .

وخاطب المدير فليسشمان من جديد : « لو أن المرء ليس مسؤولا إلا عن الأمور التي يعيها ، لكانت الحماقات مبرأة سلفاً عن كل إثم . لكن الانسان ملزم بالمعرفة يا عزيزي فليسشمان . الانسان مسؤول عن جهله . الجهل خطيئة . الذلك لا يمكن لشيء أن يبرئك ، واؤكد انك كنت تتصرف كشخص فظ مع النساء حتى لو أنكرت ذلك » .

تقريظ الحب الافلاطوني :

عاود هافل هجومه ضد فليسشمان فقال مذكراً إياه بالغزل العابث الذي كان يوجهه لاحدى الفتيات :

« هل حصلتَ اخيراً للآنسة كلارا على الشقة التي وعدتها بها ؟ » (كلارا فتاة معروفة لهم جميعا)

« ليس بعد ، لكنني أهتم بذلك .

ــ قاطعت الدكتورة متخذة موقف الدفاع عن فليسشمان : سألفت انتباهك إلى ان فليسشمان مهذب مع النساء . لا يجلب لهن المتاعب .

ــ كرر طالب الطب : لا يمكنني احتمال أن يكون المرء فظاً مع النساء ، لأنني أشعر بالشفقة عليهن .

ــ قالت إليزابيت لفليسشمان : على كل حال ، كلارا تجعلك تدفع الثمن غالياً » وقهقهت بضحكة غير لائقة بحيث أن المدير الفني نفسه مضطرا لاستئناف الكلام :

« غالياً أو رخيصاً ، هذا أقل أهمية بكثير مما تظنين يا إليزابيت .
فكما يعلم كل واحد ، كان أبيلارد مخصياً ، ولم يمنعه هذا عن البقاء ، هو واللويز ، عشيقين وفيين ، وحبهما خالد . عاشت جورج ساند طيلة سبع سنوات مع فريدريك شـوبان ، طاهرة كعذراء ، وما زال الناس يتكلمون عن حبهما ! لا أريد ، في رفقة بمثل هذه الرفعة ، التذكير بحالة العاهرة الصغيرة التي منحتني أعظم شرف يمكن لامرأة أن تمنحه لرجل ، وذلك برفضها لي . لاحظي ذلك جيداً يا عزيزتي إليزابيت ، توجد بين الحب وما تفكرين به دائما صلات أكثر هشاشة مما تتصورين.
تأكدي أن كلارا تحب فليسشمان . إنها لطيفة معه ، لكنها تتمنع عنه .
يبدو هذا لك غير منطقي ، لكن الحب هو بالضبط غير المنطقي .

ـ قالت إليزابيت ضاحكة من جديد ضحكة غير لائقة : لكن ماذا يوجد في هذا غير منطقي ؟ كلارا بحاجة إلى شقة ، ولذلك فهي لطيفة مع فليسشمان . لكنها لا ترغب بالنوم معه ، لأن لديها بالتأكيد شخص آخر تنام معه . لكن ليس بوسع ذلك الشخص الآخر تزويدها بشقة » .

في تلك اللحظة ، رفع فليسشمان رأسه وقال : « إنك تزعجينني . كأننا زمرة مراهقين . لعلها تتردد بدافع الحياء ؟ ألم يخطر هذا على بالك ؟ أو لعلها تعاني من مرض تخفيه عني ؟ جرح يشوهها ؟ يوجد نساء يعتريهن حياء مخيف . تلك الأمور فقط هي التي لا تفهمينها على ما يرام يا إليزابيت .

ـ قال المدير مقدماً العون لفليسشمان : أو أن قلق العشق حَجَّرَ كلارا أمام فليسشمان إلى درجة العجز عن مضاجعته . ليس بمقدورك يا إليزابيت تصور أنه بوسعك أن تحبي شخصاً ما إلى درجة أنه يستحيل عليك النوم معه ؟

أكدت إليزابيت أن لا .

الإشـــارة :

يمكننا الآن التوقف لبرهة عن متابعة المحادثة (المفـــناة باستمرار بالاخبار الهاذرة) لكي نوضح أن فليسشمان يبـــذل جهـــده للنظر في عيني الدكتورة منذ بداية الأمسـية لأنها كانت تعجبه على نحو مذهل منذ أن شاهدها لأول مرة (وقد مضى على هذا شهر) . كان جلال سنواتها الثلاثين يبهره . لم يكن قد شاهدها حتى الآن إلا على نحو عابر ، وكانت هذه الأمسية الفرصة الأولى التي سنحت له بالالتقاء معها لبعض الوقت في الحجرة نفسها . كان يشعر أنها تستجيب من حين لآخر لغمزاته ، وكان متأثراً من ذلك .

إذاً ، بعد تبادل النظرات ، نهضت الدكتورة فجأة ، ثم اقتربت من النافذة وقالت : « ما أجمل الجو في الخارج . هذا البدر ... » ومن جديد استقرت نظرتها عفوياً على فليسشمان .

فهم فليسشمان الذي كان ذكياً في حالات من هذا النوع أن تلك كانت إشارة ، وإشارة موجهة له . وفي تلك اللحظة بالذات ، شعر أن موجة تثور في صدره . كان صـــدره في الحقيقة آلة حساسة جديرة بورشة ستراديفار ـ يوس(*) . كان يحدث له من حين لآخر ان يشعر بهذا الإحســاس المثير وكان واثقاً في كل مرة من أن الموجة في صدره تحمل حتمية منذرة بقدوم أمر ما عظيم وخارق قد يتجاوز أحلامه .

في تلك المرة كان مذهولا من هذه الموجة وكذلك مندهشاً (في زاوية خفية من دماغه التي كانت تفلت من الذهول) : كيف كان يمكن لرغبته أن تحظى بمثل هذه القوة ، وأن يهرع الواقع بانقياد لنداء رغبته ، مفسحاً المجال لتحقيقها ؟ دون أن يكف عن الاندهاش من قدرته ، كان يترقب اللحظة التي سيصبح فيها النقاش أكثر حدة والتي سيفر فيها

(*) ستراديفاريوس : مخترع كمان .

من انتباه الغرماء . وما إن ارتأى أن تلك اللحظة جاءت ، حتى اختفى من القاعــة .

الشاب الوسيم المعقود الذراعين :

كان القسم الذي تجري فيه هذه المحاورة المرتجلة يشغل الطابق الأرضي من جناح جميل مبني (بالقرب من أجنحة أخرى) في حديقة المشفى الفسيحة . وإلى تلك الحديقة كان فليسشمان قد دلف لتوه . استند إلى جذع شجرة دلب واشعل سيكارة ، وتأمل السماء : كان الوقت في عز الصيف ، والعطور تعبق في الهواء ، والقمر الدائري معلقاً في السماء السوداء .

كان يرغم نفسه على تخيل الشخص الذي سيتبعه عما قليل : كانت الدكتورة التي اشارت له للتو بالخروج ستنتظر ان يستغرق أصلعها في المحادثة أكثر من استغراقه في الشك ، ثم ستعمد باحتشام إلى الإفصاح عن حاجة صغيرة خاصة تضطرها إلى التغيب لبرهة .

وماذا كان سيحدث بعد ذلك ؟ كان يفضل بعد ذلك أن لا يتخيل شيئاً . بدأت الموجة في صدره تنذر بمغامرة وكان هذا يكفيه . صار واثقاً من حظه ومن نجمة حبه ومن الدكتورة . كان وهــو يتعلل باطمئنانه (أطمئنان ما زال حائراً قليلا) يستسلم لسلبية ممتعة ، لأنه كان دائماً يشاهد نفسه بملامح الرجل المغري والمرغوب والمحبوب ، وكان يروق له انتظار المغامرات بذراعين معقودين (بلباقة) . كان واثقاً أن الذراعين المعقودين يستثيران ويفتنان النساء والقدر .

من المهم بالتأكيد في هــذه المناسبة ملاحظــة انه كان يحــدث غالبــاً ، إن لم يكن دائمــاً ، لفليسشمان أن يشاهد نفسه مصحوباً دوماً بقرين بحيث أن وحدته كانت تصبح مسلية تماماً . في ذلك المساء على سبيل المثال ، لم يكن وحسب مستنداً إلى شجرة دلب ويدخن ،

بل كان يراقب في الوقت نفسه بتلذذ ذاك الرجل (الوسيم والفتي ، المستند إلى شجرة دلب ويدخن بلا مبالاة . استمتع طويلاً بهذا المشهد وانتهى إلى سماع خطوات رشيقة تأتي صوبه من الجناح . تعمد أن لا يلتفت . سحب نفساً من سيكارته . ثم نفث الدخان وحدق عينيه في السماء . عندما أصبحت الخطوات قريبة جداً ، قال بصوت رقيق ومخادع : « كنت أعلم أنك ستأتين » .

البول :

أجابه المدير : « لم يكن شاقاً اكتشاف هذا . أفضل التبول في الطبيعة أكثر من التبول في المباني الحديثة الكريهة . هنا ، عما قليل ، سيربطني خيط دقيق مذهب بأعجوبة مع التربة ، مع العشب والأرض . لأنني تراب يا فليسشمان ، وسأعود إلى تراب خلال برهة ، جزئياً على الاقل . التبول في الطبيعة هو طقس نعد به الأرض بالعودة إليها ذات يوم كلياً » .

ظل فليسشمان صامتاً فسأله المدير : « وأنت ؟ جئت كي تنظر إلى القمر ؟ » ظل فليسشمان صامتاً بإصرار فأضاف المدير : « أنت غريب الأطوار يا فليسشمان ، لذلك أحبك كثيراً » فسر فليسشمان كلمات المدير كسخرية وقال بنبرة كان يريدها جافة : « دعني وشأني مع القمر . أنا أيضاً جئت إلى هنا لكي أتبول .

ـ قال المدير متأثراً : يا صغيري فليسشمان : أفسر هذا كدليل استثنائي على المحبة حيال رئيسك الكهل » .

واستقر كلاهما تحت شجرة الدلب لكي ينجزا عملية التبول التي كان المدير يشبهها بطقس بحماسة لا تكل وبصور متجددة باستمرار .



الفصل الثـاني

الشاب الوسيم الساخر :

كانا يعـودان عبر الممر الطـويل والمديـر يحتضن كتفي طالب الطب واثقا من أن هذا الأصلع الغيور قد كشف إشارة الدكتورة وأنه يسخر منـه بمناجاته الودية ! لم يكن بوسـعه طبعاً إزاحـة يد المدير عن كتفه ، ولم يزده ذلك إلا غيظاً . ثمة أمر وحيد يواسيه : ذلك أنه كان ، وهو يغلي من الغضب ، يشاهد نفسه في هذا الغضب ، كـان يشاهد تعبير وجهه نفسه ، وكان مسرورا من هذا الشاب الحانق الذي يعـود إلى قاعـة المناوبة ، وبمباغتة عامـة ، سوف يبدو فجأة بشكل مختلف تماما : ساخرا ولاذعا وشيطانيا .

حين دخلا إلى قاعة المناوبة ، كانت إليزابيت تقف وسط الحجرة وتهز وركيها بشكل مخيف ، مترنمة بأنغام لحن . كان الدكتور هافل يغض بصره فشرحت الدكتورة لكي تستدرك ذعر القادمين الجـدد : « اليزابيت ترقص .

ــ أضاف هافل : إنها ثملة قليلاً » .

لم تكف إليزابيت عن هز خصرهـا ومملوجة صدرها أمام وجه الدكتور هافل المطرق .

سأل المدير : « أين تعلمت اذاً هذه الرقصة الجميلة ؟ »

اطلق فليسشمان المترع بالسخرية ضحكة علنية « اه ! اه ! اه ! رقصة جميلة ! آه ! اه !اه !

— ردت إليزابيت على المدير : انه مشهد رايته في حانة لرقص التعري في فيينا .

— اغتاظ المدير برقة : حسناً ، حسناً ، منذ متى تتردد ممرضاتنا على حانات لرقص التعري ؟

— قالت اليزابيت مماوجة صدرها حوله : هذا ليس ممنوعا رغم كل شيء أيها المدير ! »

كان الغيظ يتدفق في جسد فليسشمان باحثا عن مخرج فقال : « إنك في حاجة إلى البرومور وليس لتسكينك وليس لرقصة تعري . ستنتهين إلى الاعتداء علينا .

— قاطعت اليزابيت وهي تماوج صدرها حول الدكتور هافل : انت ، ليس لديك شيء تخشى عليه . الأدعياء البليدون لا يسلونني .

— سأل المدير بود : وهل اعجبتك رقصة التعري تلك ؟

— أصدقك القول ! كانت توجد سويدية ذات نهدين كبيرين ، لكن لدي نهدين أجمل منهما بكثير ! (كانت تداعب صدرها وهي تقول هذا) وكانت توجد أيضا فتاة تتظاهر بالاستحمام في رغوة الصابون في حوض من الكرتون ، وخلاسية تمارس العادة السرية أمام الجمهور ، هــذا هو أفضل ما كان يوجد !

— قال فليسشمان دافعاً التهكم الشيطاني إلى مداه : آه ! آه ! العادة السرية ، هذه بالضبط ما تحتاجين إليه ! »

حزن بشكل ردف :

كانت اليزابيت تواصل الرقص ، لكن جمهورها كان بالتأكيد جمهور اقل جمهرة بكثير من المشاهدين في حانة فيينا لرقص التعري : كان هافل يطرق راسه والدكتورة تنظر بمكر وفليسشمان باستياء والمدير بتسامح ابوي . وكان ردف اليزابيت الذي يضيق عليه القماش الابيض لمئزر المرضة يعبر الحجرة كشمس مدورة على نحو رائع ، لكنها شمس منطفئة وخامدة (مغلفة بوشاح أبيض) . شمس تحكم عليها النظرات اللامبالية والمتضايقة للاطباء الحاضرين بعدم اكتراث مثير للرثاء

جاءت اللحظة التي ظنوا فيها ان اليزابيت توشك على خلع ملابسها بالفعل قطعة تلو اخرى ، بحيث ان المدير تدخل بصوت قلق : « لكن يا اليزابيت ! لسنا هنا في فيينا !

ـ مما تخاف ايها المدير !؟ ستعرف على كل حال ما هي عليه المراة عارية ! » أعلنت اليزابيت ثم التفتت من جديد نحو الدكتور هافل وهددته بنهديها : « حسنا يا عزيزي هافل ! ماذا يدور في هذا الراس؟ ارفع راسك ! هل مات أحد ؟ هل انت في حداد ؟ انظر إلي ! إنني حية لست على حافة الموت ! ما زلت نابضة بالحياة ! إنني اعيش ! » وحين كانت تقول هذا ، لم يعد ردفها ردفا بل الحزن نفسه ، حزن مجسم على نحو رائع كان يعبر القاعة راقصا .

قال هافل وعيناه مسمرتان على الأرضية الخشبية : « اعتقد ان هذا يكفي الآن يا إليزابيت .

ـ قالت إليزابيت : هـذا يكفي ؟ لكنني ارقص لأجلك ! والآن سأقدم رقصة تعري ! رقصة تعري عظيمة ! » وفكت مئزرها المعقود على خصرها ، وبحركة راقصة ، ألقته على المكتب .

تكلم المدير من جديد وبخوف : « سيكون جميلا يا اليزابيت أن تقدمي لنا رقصة تعري ، لكن في مكان اخر . كما تعلمين ، نحن هنـا في المشـفى » .

رقصـة التعـري العظيمـة :

اجابت اليزابيت : « أحسن التصرف أيها المدير ! » كانت في لباسها النظامي ، الأزرق الغامق ذي الياقة البيضاء ، وكانت تواصل التهزهـز .

وضعت بعد ذلك كفيها على وركيها وزلقتهما على امتداد الجذع . رفعتهما فوق الرأس ، ثم تسلقت يدها اليمنى على امتداد ذراعهـا اليسرى المرفوعة ويدها اليسرى على امتداد ذراعها اليمنى ، أنهـت بعد ذلك حركة الاذرع باتجاه فليسشمان ، كما لو كانت تلقي صدارها عليه . شعر فليسشمان بالخوف وقفز ، فصاحت به : « أيها الطفل ، تركته يسقط ! »

أعادت بعد ذلك يديها إلى وركيها ، وزلقتهما على امتداد الساقين؛ رفعت الساق اليمنى ثم الساق اليسرى وهي منحنية . نظرت بعد ذلك إلى المدير وحركت الذراع اليمنى ملقية إليه بتنورتها الوهمية . مد المدير يده وأحكم قبضته ، ثم أرسل إليها بيده الأخرى قبلة .

بضع هزات أيضا وبضع خطى ، ثم انتصبت اليزابيت على رؤوس أصابعها ، ولوت ذراعيها إلى الخلف وتشابكت أصابعها وسط ظهرها . ثم سحبت الذراعين إلى الأمـام بحركات راقصـة ، وداعبت الكتف اليمنى باليد اليسرى والكتف اليسرى باليد اليمنى ، ومـن جديـد قامت بحركة ذراع رشيقة ، هذه المرة باتجاه الدكتور هالڤل الذيبدوره رد بحركة خجلة ومتضايقة مـن يـده .

لكن اليزابيت أخذت تتمشى الآن في الغرفــة بعظمــة ؛ راحت تستعرض مشاهديها الأربعة الواحد تلو الآخر ، رافعة أمام كل واحــد منهم العري الرمزي لجسدها . توقفت في النهاية امام هاقل ، واخذت تماوج وركيها ، ثم زلقت يديها على امتداد جذعها وهي تنحني بخفة ؛ عندئذ (كما منذ قليل) ، رفعت أولاً ساقاً ، ثم الأخرى ، وانتصبت بانتصار ، رافعة يدها اليمنى بالسروال الوهمي بين الابهام والسبابة. من جديد وبرشاقة ، قامت بحركة نحو الدكتور هاقل .

كانت متفاخرة بعريها الوهمي ، لم تعد تنظر إلى احــد ، ولا حتى إلى هاقل . صارت تنظر إلى جسدها المتموج وعيناها نصف مغمضتين ورأسها مائل جانبا .

تحطمت بعد ذلك وضعية الزهو وجلست اليزابيت على ركبتي الدكتور هاقل . قالت متثائبة : « إنني منهكة » . أمسكت كأس هاقل وشربت جرعة . قالت لهاقل : « دكتور ، أليس لديك أقراص لتنشيطي؟ فرغم كل شيء لن أخلد إلى النوم !

ــ قال هاقــل : لأجلك ، لدي كل ما تريدين يا اليزابيت ! »
وانهضها عن ركبتيه واجلسها على الكرسي ثم توجه إلى الصيدلية . وجد فيها منوماً فعالاً فاعطى منه قرصين إلى اليزابيت .

سألت : « هذا سينشطني ؟

ــ مثلما أدعى هاقل » قال هذا الأخير .

كلمات وداع إليزابيت :

عندما ابتلعت إليزابيت القرصين ، ارادت الجلوس ثانيــة على ركبتي هاقل ، لكنه ابعد ساقيه فسقطت إليزابيت .

تأسف هامل لذلك في الحال ، لأنه لم يكن يقصد توجيه هـذه الإهانة إلى إليزابيت والحركة التي قام بها كانت بالأحرى رد فعل عفوي سببه النفـور الصـادق الذي يشـعر بـه من فكـرة تلامس ردف إليزابيت بفخذيه .

حاول إذاً إنهاضها ثانية ، لكن إليزابيت كانت تتشبث بالأرض بكل ثقلها ، بإصرار نحيبي .

استقر فليسشمان أمامها : « أنت ثملة وعليك الخلود إلى النوم » .

تأملته إليزابيت من أسفله إلى اعـلاه باحتقار بالغ وقالت لـه (مستمتعة بماسوشية مؤثرة لوجودها على الأرض) : « وغد ، أحمق » ومرة أخرى أيضاً : « أحمق » .

حاول هافل مـن جديد إنهاضها ثانيـة ، لكنها تخلصت بعنف وانفجرت بالبكاء . لم يجد أحد شيئاً ليقوله وكان نحيب إليزابيت يرتفع كعزف كمان في الحجرة الصامتة . بعد برهة مديدة ، خطرت للدكتورة فكرة الصفير بلطف . نهضت إليزابيت بوثبة واتجهت نحو الباب ، وعندما وضعت يدها على القبضة ، التفتت وقالت : « أوغاد . أوغاد . ليتكم تعلمون . لكنكم لا تعلمون شيئاً . لا تعلمون شيئاً » .

مرافعة المدير ضد فليسشمان :

أعقب ذهاب إليزابيت صمت بادر المدير أولاً إلى قطعه : « كما ترى يا صفيري فليسشمان . أنت تدعي الشفقة حيال النساء . لكن إذا كنت تشعر بالشفقة حيال النساء ، لماذا لم تشعر بالشفقة حيال إليزابيت ؟

ــ أجاب فليسشمان : بماذا يعنيني هذا ؟

ـ لا تتظاهر بانك لا تعرف شيئاً ! اخبرتك بذلك منذ قليل . إنها مولهة بك !

ـ سأل فليسشمان : هل أستطيع شيئاً حياله ؟

ـ قال المدير : لا تستطيع شيئاً حياله . لكنك فظ معها وتؤلمها ، وهذا تستطيع شيئاً حياله . طيلة الأمسية لم تكن تهتم إلا بأمر واحد ، بما كنتَ ستفعله ، وفيما إذا كنتَ ستنظر إليها وتبتسم لها وتقول لها كلمة لطيفة . وتذكّرْ ما قلته لها !

ـ رد فليسشمان (لكن كان يوجد شك في صوته) : لم أقل لها شيئاً مخيفاً جداً .

ـ تهكم المدير : لا شيء مخيف جداً . سخرتَ منها حين رقصت مع انها لم ترقص إلا لأجلك ، نصحتها بتعاطي البرمور ، قلتَ لها بأن ما كان يمكنها ان تقوم به على نحو أفضل هو ممارسة العادة السرية . لا شيء مخيف ! حين قامت برقصة التعري تركْتَ صدارها يسقط على الأرض .

ـ احتج فليسشمان : اي صدار ؟

ـ قال المدير : صدارها . لا تتغابَ . وفي النهاية أرسلتها للنوم مع أنها تناولت اقراص ضد التعب .

ـ دافع فليسشمان عن نفسه : لكنها سعت وراء هاڤل !

ـ قال المدير بقسوة : لا تتخابث . ماذا كنت تريدها أن تفعل ، ما دمت لم تكن تهتم بها ؟ كانت تستفزك . ولم تكن ترغب إلا بشيء واحد ، شذرات من غيرتك . وبعد هذا تدعي أنكَ جنتلمان !

ـ قالت الدكتورة : دعه وشانه الآن . إنه فظ لكنه فتي .

ـ قال هافل : إنه رئيس ملائكة العقاب » .

الأدوار الميثيولوجية :

قالت الدكتورة : « أجل ، هذا صحيح . انظروا اليه : رئيس ملائكة وسيم ومخيف .

ـ لفت المدير الانتباه بصوت ناعس : إننا جمعية ميثيولوجية حقيقية ، لأنك أنت ، أنت ديانا ، باردة ورياضية وخبيثة .

ـ قالت الدكتور : وأنت ، أنت ستير(*) ، عجوز وخليع وثرثار ، وهافل هو دونجوان . ليس عجوزاً لكنه كهل .

ـ أجاب المدير عائداً إلى موضوعه منذ قليل : هيا إذاً ! هافل هو الموت »

نهاية الدونجوانات :

« إذا سألتموني هل أنا دونجوان أو الموت ، عليّ أن اتبنى رأي المدير ولو على مضض ، قال هافل وازدرد جرعة كبيرة . كان دونجوان فاتحا ، بل الفاتح . فاتحا عظيما . لكنني اسألكم كيف تريدونني أن أكون فاتحا في منطقة لا أحد يقاومكم فيها ، وكل شيء ممكن فيها ومباح ؟ انتهى عهد الدونجوانات . السليل الحالي لدونجوان لم يعد يغزو ، بل يجمع . شخصية الفاتح العظيم أعقبتها شخصية هاوي المجموعات العظيم ، لكن هاوي المجموعات لم يعد يشترك بشيء مطلقاً مع دنجوان .

(*) ستير : شخص خرافي نصفه الأعلى بشر ونصفه الأدنى ماعز .

كان دونجوان شخصية تراجيدية . كان موصوماً بالخطيئة . كان يأثم بمرح ويسخر من الله . كان منجدفاً وانتهى إلى الجحيم .

« كان دونجوان يحمل على كاهله عبئاً تراجيدياً ليس لدى هاوي المجموعات العظيم أدنى فكرة عنه ، لأن كل ثقل في عالمه هو بلا وزن . استحالت الكتل الصخرية إلى زغب . كانت نظرة في عالم الفاتح تحوي ما تحويه الآن في عالم هاوي المجموعات عشر سنوات من الحب الجسدي الأكثر مواظبة .

«كان دونجوان سيداً ، بينما هاوي المجموعات عبد . كان دونجوان يخرق بوقاحة الأعراف والقوانين . هاوي المجموعات العظيم لا ينفك يساير بخضوع وبعرق جبينه العرف والقانون ، لأن تنظيم المجموعات أصبح من الآن فصاعداً جزءاً من التهذيب واللياقة ، صار تنظيم المجموعات يعتبر تقريباً بمثابة واجب . وإذ أشعر بنفسي مذنباً ، فهذا ، فقط » لأني لا آخذ إليزابيت .

« لا يربط هاوي المجموعات العظيم شيء بالتراجيديا ولا بالدراما . أصبح الشبق ، الذي كان أصل المصائب ، بفضله أمراً شبيهاً بالافطار أو العشاء ، بجمع الطوابع ، بلعبة كرة الطاولة أو التبضع في المخازن . أدخل هاوي المجموعات الشبق في الميدان المبتذل . صنع منه كواليس ومنصات مسرح لن تحدث فيه أبداً الدراما الحقيقية . وا أسفاه يا أصدقائي ، هتف هافل بنبرة مؤثرة ، غرامياتي (إذا سمحت لنفسي بتسميتها كذلك) هي منصات مسرح لا يحدث فيه شيء .

« يا عزيزتي الدكتورة ويا عزيزي المدير . إنتما قارنتما دونجوان بالموت ، كطرفي تناقض . وهكذا كشفتما جوهر المشكلة بمحض الصدفة وسهواً . أنظروا ؛ كان دونجوان يجابه المستحيل . وهذا ما يعتبر إنسانياً إلى درجة كبيرة . وبالمقابل ، لا شيء يستحيل في مملكة هاوي المجموعات العظيم ، لأنها مملكة الموت . هاوي المجموعات العظيم ، هو

الموت الذي جاء يسعى بنفسه إلى التراجيديا والدراما والحب . الموت الذي جاء يسعى إلى دونجوان . دونجوان حي في النار الجهنمية التي أرسله إليها الكوماندور . اما في عالم هاوي المجموعات العظيم الذي ترفرف في فضائه الشهوات والمشاعر كريشة ، في ذاك العالم ، دونجوان ميت حتما .

« هيا إذاً يا سيدتي العزيزة ، قال هافل بحزن ، أنا ودونجوان ! هذا ما قد أقدمه لكي أرى الكوماندور ، لكي أحس فوق روحي بالثقل الفظيع للفتنة ، لأشعر بتزايد عظمة التراجيديا في نفسي ! هيا إذاً يا سيدتي ، إنني في أحسن الأحوال ، شخصية كوميدية ، وحتى هذه لا أدين بها لنفسي ، بل إلى دونجوان شخصياً ، لأنه على الخلفية التاريخية لمسرحه التراجيدي ، وحسب، يمكنكم أيضاً أن تفهموا، بطريقة ما ، الكوميديا الحزينة لوجودي كمطارد للنساء ، الوجود الذي بدون هذه العلامة ليس إلا رتابة تافهة ، ومشهد طبيعي ممل » .

إشارات جديدة :

سكت هافل بعد أن تعب من هذه الخطبة المسهبة (التي ترك المدير الناعس رأسه أثناءها ، يسقط على صدره مرتين) تكلمت الدكتورة بعد فترة صمت مفعمة بالتأثر : « لم أكن أعلم يا دكتور أنك خطيب فصيح . وَصَفْتَ نفسك بسمات شخصية كوميدية ، رتيبة وضجرة ، كأنك عديم الشأن ! ومع الأسف كانت الطريقة التي عبرت بها فائضة النبل قليلاً . إنها لباقتك اللعينة : تصف نفسك بالمتسول ، لكنك تختار لهذه الغاية كلمات أميرية ، لكي تصبح رغم ذلك أميراً أكثر من كونك متسولاً . إنك غشاش عجوز يا هافل . مزهو حتى في اللحظات التي تتمرغ بها في الطين . إنك غشاش قديم ودنيء » .

قهقه فليسشمان بضحكة رنانة لأنه كان يظن في غمرة بهجته أنه كشف في كلمات الدكتورة عن الاحتقار حيال هافل ، لذلك اقترب من

النافذة متشجعا من سخرية الدكتورة ومن ضحكته الخاصة وقال بنغمة ممدودة : « يا له من ليل !.

ــ قالت الدكتورة : اجل . ليل ساطع . وهاڤل يمثل دور الموت! هل لاحظت فقط ياهاڤل أن جو الليل ساحر ؟

ــ قال فليسشمان : طبعا لا . المرأة هي المرأة والليل يعادل ليلا آخر ، الشتاء والصيف هما الشيء نفسه . الدكتور هاڤل يرفض التمييز بين الصفات الثانوية .

ــ قال هاڤل : لقد كشفتني تماماً » .

خمن فليسشمان ان موعده هذه المرة مع الدكتورة سيكون ناجحاً : كان المدير قد شرب كثيراً وكان النعاس الذي بدأ يستسلم له منذ بضعة دقائق يبدو انه يضعف يقظته كثيراً . قال فليسشمان باحتشام « أوه ! مشانتي » وتوجه نحو الباب بعد أن رمق الدكتورة بنظرة .

الغــاز :

فكر أيضا في الممر بسرور ان الدكتورة امضت الأمسية في السخرية من الرجلين . المدير وهاڤل الذي وصفته للتو بكثير من اللباقة بالغشاش. واذهلته رؤية حالة متكررة كانت تدهشه كل مرة ، تماماً لأنهــا تتكرر بمثل هذا الانتظام : كان يعجب النساء وكن يفضلنه على الرجال المجربين، وهذا ما كان يشكل في حالة الدكتورة ــ وهي بوضوح امرأة متشددة فوق العادة ، ذكية ومتعجرفة (لكن بظرف) ــ انتصاراً جديداً ومفاجئاً .

اجتاز فليسشمان الممر الطويل وهو في تلك الحالــة النفسية وتوجه نحو المخرج . كان قد وصل تقريباً إلى الباب الذي يفضي إلى الحديقة ، حين خرشت فجاة منخريه رائحة غاز . توقف وشم . كانت منبعثة من الباب الذي يفصل الممر عن حجرة استراحــة الممرضات الصغيرة . ادرك فليسشمان فجأة انه يشعر بخوف شديد .

كانت حركته الأولى هي الركض للبحث عن المدير وهاقل ، لكنه قرر بعد ذلك وضع يده على مقبض الباب (بالتأكيد لأنه كان يفترض أن الباب سيكون موصداً ومغلقاً بالرتاج) . لكن الباب انفتح في غمرة دهشته . كان مصباح السقف مضاء وينير جسد امرأة عارياً وممدداً على الأريكة . ألقى فليسشمان نظرة دائرية عبر الحجرة ووثب نحو سخان صغير . أدار صنبور الغاز الذي كان مفتوحاً . ثم هرع إلى النافذة وفتحها على مصراعيها .

ملاحظة بين قوسين :

(يمكن القول أن فليسشمان تصرف برباطة جأش وبالتالي بسرعة بديهة . مع ذلك ثمة أمر لم يلاحظه بما يكفي من رباطة الجأش . طبعاً ، ظل محدقاً لبرهة مديدة في جسد إليزابيت العاري ، لكن كان يعتريه خوف كبير بحيث أنه لم يستطع ، خلف حجاب هذا الخوف ، تبين ما يمكننا الآن الإستمتاع به بمنتهى التمهل ، مستفيدين من استرجاع مفيد .

كان هذا الجسد بهياً . كان مستلقياً على الظهر والرأس مائل قليلاً ، الكتفان متقاربان نوعاً ما ، والنهدان الجميلان يتزاحمان كاشفين عن شكلهما المكتنز . إحدى الساقين ممدودة والأخرى مثنية برشاقة بحيث كان بوسع المرء أن يشاهد امتلاء الفخذين الملفت للنظر ، واللون الأسود المعتم لشعر العانة الكث للغاية) .

طلب النجدة :

بعد أن فتح فليسشمان النافذة على مصراعيها والباب ، وثب إلى الممر ونادى للمساعدة . وما أعقب ذلك جرى بفعالية ناجعة : تنفس اصطناعي ، مكالمة هاتفية لقسم الإسعاف ، وصول عربة نقل المرضى ، تسليم المريضة للطبيب المناوب ، جلسة تنفس اصطناعي جديدة ، عودة للحياة ، نقل دموي وفي النهاية ، تنفس الصعداء حين اتضح أن حياة إليزابيت أنقذت .

الفصـــل الثـــالث

كل واحد قال شيئاً :

حين خرج الأطباء الأربعة من قسم الإسعاف والفوا أنفســـهم في الساحة ، كانوا يبدون منهكين .

ــ قال المدير : « لقـد أفسدت علينـا حوارنـا تلك الصـغيرة إليزابيت » .

ــ قالت الدكتورة : « النساء غير الراضيات يجلبن النحس دوماً » .

ــ قال هـافل : « هذا غريب . ترتب عليها أن تفتح الغاز لكي نتبين انها جميلة القوام » .

عند هذه الكلمات ، نظر فليسشـمان (ملياً) الى هافـل وقال : « لم تعد لدي رغبة بالشرب ولا بالمسامرة . طابت ليلتكم » وتوجه نحو مخرج المشـفى .

نظرية فليسشمان :

كان فليسشـمان يشعر بالإشمئزاز من أحاديث زملائه . كان يرى فيهـا برودة الرجـال والنساء المتقدمين في السن ، وقساوة عمرهم التي تنتصب أمام شبابه كحاجز منيع . لذلك كان يستمتع لأنه وحيد وكان يذهب ماشياً عمداً لكي يتذوق نشوته تماماً : لم يكن يكف بخوف

عذب عـن ترداد أن إليزابيت أشرفت على الموت وأنه كـان المسـؤول عـن ذلك .

لم يكن يجهل بالطبع أن الانتحار ينجم علاة عن كوكبة كاملة مـن الأسباب وليس عن سبب واحد ؛ لكنه لم يكن بوسعه إنكار أن احد تلك الأسـباب ، وبلا ريب السـبب الحاسم ، كان هو ، لمجـرد وجـوده وسلوكه اليوم .

صار يتهم نفسه الآن بطريقة مؤثرة . أخذ يقول لنفسه بأنه كان أنانياً في النظرة المزهوة المسمرة على نجاحاته الغرامية . كان يتخيـل نفسه مضحكاً لأنه ترك نفسه ينبهر بالاهتمام الذي أظهرته له الدكتورة. كان يلوم نفسه لأنه جعل من إليزابيت مجرد شيء ، وإناء استخدمه لصب جام غضبه عندما اعترض المدير الغيور موعده الليلي . بأي حق عامل مخلوقة بريئة بهذا الشكل ؟

مع ذلك لم يكن طالب الطب الشاب انساناً ساذجاً ؛ فكل واحدة من حالاته النفسية كانت تتضمن في ذاتها جدل التأكيد والنفي ، بحيث أن صوت المتهم الداخلي صار يرد الآن على صوت المدافع الداخلي : كانت السخريات التي وجهها الى اليزابيت غير لائقة حتماً ، لكنها بالتأكيـد ما كانت لتستتبع نتائج بمثل هذه التراجيدية لو لم تكن اليزابيت قـد تتيمت به . والحال هذه ، هل كان بوسع فليسشمان فعل شيء إذا كانت امرأة مغرمة به ؟ وهل يصبح مسؤولاً بشكل آلي عن تلك المرأة ؟

توقف عند هذا السؤال الذي كان يبدو له المفتاح لكل سر الوجود الانساني . توقف حتى عن المشي وصاغ الاجابة الأكثر جدية في العالم : أجل كان قد اخطأ منذ قليل حين قال للمدير بأنه غير مسؤول عما يسببه بغير علمه ، هل كان بمقدوره فعلا اختصار شخصيته الى ما كان يدركه ويعيه ؟ ألم يكن أيضاً جزءاً من دائرة شخصيته ما كان يحكم بغير وعي ؟ وأي شخص غيره يمكنه أن يكون مسؤولا عن ذلك ؟ أجل ، كان مذنباً ؛

مذنباً بحب إليزابيت له ؛ مذنباً لجهله هذا الحب ؛ مذنباً لرفضه له ؛ مذنباً . ولولا قليل ، لقتل كائناً إنسانياً .

نظريـة المديـر :

بينما كان فليسشمان يستسلم لمحاسبة نفسه ، كان المدير وهاقل والدكتورة يعودون إلى قاعة المناوبة . لم يعـد لديهم بالفعل رغبـة في الشرب ؛ فلزمـوا الصمت لبعض الوقت ؛ ثـم قال الدكتور هاقـل : « ما الذي أمكنه أن يدور في رأس اليزابيت » ؟

ـ قال المدير : ليست حالة عاطفية . حين يرتكب شـخص مـا حماقات من هذا النوع ، أمنع نفسي من أي انفعال . وفضلا عن ذلك ، لو لم تكابر ولو انك فعلت معها مالا تتردد بفعله مـع جميع النسـاء الأخريات ، لما حدث هذا .

ـ قال هاقل : اشكرك على تحميلي مسؤولية انتحار .

ـ أجاب المدير : لنكن دقيقين . ليس المقصـود انتحاراً ، بـل المقصود حفل انتحاري مدبر بحيث يتفادى الكارثة . عزيزي الدكتور ، عندما يريد المرء خنق نفسه بالغاز يبدأ بإغلاق الباب بالمفتاح . والأجدر من هذا ، أن يهتم المرء بسد كل الشقوق لكي يتم تأخير اكتشـاف وجود الغاز ما أمكن . لكن اليزابيت لم تكن تفكر في الموت ، كانت تفكر بك .

« الله أعلم منذ كم من الأسابيع كانت تستمتع بفكرة أنها ستكون برفقتك في المناوبة الليلية ، ومنذ بداية الأمسية ركزت انتباهها عليك بفجور . لكنك عاندت . وكلما أمعنت في عنادك ، أمعنت هي في الشرب وأمعنت في إظهار اغرائها : تكلمت ورقصت وأرادت القيام برقصـة تعـري ...

« انتبه ، أتساءل فيما إذا كان لا يوجد رغم كل شيء أمر ما مؤثر في ذلك. حين أدركت انه لم يكن بوسعها جذب أنظارك ولا سمعك، راهنت بكل شيء على حاسة شمك وفتحت الغاز . وقبل أن تفتح الغاز خلعت ملابسها . فهي تعلم بأن لديها جسداً جميلا ، وأرادت إرغامك على التأكد بنفسك من ذلك . تذكر ما قالته وهي تغادر : ليتكم تعلمون . إنكم لا تعلمون شيئاً . لا تعلمون شيئاً . ها أنت تعلم الآن أن إليزابيت وجهاً قبيحاً لكن لها جسداً جميلا . تأكدت من ذلك بنفسك . انك تدرك أن محاكمتها ليست متهافتة جداً . وأتساءل فيما إذا ستستلم الآن » .

هز هافل كتفيه وقال : « هذا ممكن

ـ قال المدير : إنني واثق من ذلك » .

نظرية هافـل :

« أيها المدير ، ما تقوله قد يبدو مقنعاً ، لكن ثمة عيب في محاكمتك : إنك تبالغ تقدير دوري في هذه القضية . لأنني لست المقصود . فرغم كل شيء لست الوحيد الذي رفض النوم مع إليزابيت . لم يكن أحد يرغب بالنوم معها .

« منذ قليل ، حين سألتني لماذا لم أكن اريد الحصول على اليزابيت ، أجبتك بهذيانات ما عن روعة حرية الاختيار وعن حريتي التي أحرص على الحفاظ عليها . لكنها لم تكن سوى أقوال عابثة هادفة لتمويه الحقيقة التي هي جد مختلفة وليست جميلة إطلاقاً : فاذا رَفَضْتُ إليزابيت ، فذلك لأنني عاجز عن التصرف كرجل حر ، لأن الدرْجَة السائدة هي عدم النوم مع إليزابيت . لا أحد ينام معها ، ولو نام معها ، لما اعترف بذلك أبداً لأن كل الناس كانوا سيسخرون منه . الدرْجَة هي تنين مخيف وقد أذعنت لها بخضوع . لكن إليزابيت امرأة

ناضجة ، وهذا ما أطار صوابها . وربما ما أطار صوابها أكثر من كل شيء هو أنني ارفضها ، لأن الجميع يعلم بأنني آخذ كل شيء . لكن الدرّجة أغلى عندي من صواب إليزابيت .

« وانت محق أيها المدير : إنها تعلم بأن لها جسداً جميلا ، وكانت تحسب أن هذا الوضع غير معقول وجائر فأرادت الاحتجاج . تذكر أنها لم تكف طيلة الأمسية عن جذب الانتباه الى جسدها . عندما تكلمت عن راقصة التعري السويدية التي شاهدتها في ڤيينا ، داعبت نهديها واعلنت انهما اجمل من نهدي الراقصة السويدية . وتذكر : اجتاح نهداها وردفها هذه الحجرة طيلة الأمسية كجمهور متظاهرين . أتكلم جاداً أيها المدير ، كانت مظاهرة .

« وتذكر رقصة تعريها ، تذكر كيف كانت تؤديها ! أيها المدير ، انها رقصة التعري الأكثر حزناً التي شاهدتها حتى الآن . كانت تتعرى بانفعال ، لكن دون أن تتحرر من الرداء المقيت لزيها كممرضة ، كانت تتعرى ، لكنها لم تكن تستطيع التعري . ومع أنها تعلم تماماً بأنها لن تتعرى ، كانت تتعرى لأنها كانت تريد أن تبلغنا حزنها والرغبة الخيالية بالتعري . أيها المدير ، لم يكن ذلك تعرياً ، بل كان أغنية رثاء التعري ، اغنية عن استحالة التعري ، عن استحالة ممارسة الحب ، عن استحالة الحياة ! وحتى هذا ، لم نرغب بسماعه ، كنا نطأطيء رؤوسنا ونتظاهر بعدم الإكتراث .

ــ هتف المدير : اوه ، زير رومانسي ! هل تعتقد حقاً أنها كانت تريد الموت ؟

ــ قال هافل : تذكر ما قالته لي وهي ترقص ! قالت لي : مازلت حية ! ما زلت نابضة بالحياة ! هل تتذكر ؟ منذ اللحظة التي بدأت فيها بالرقص ، كانت تعلم ما ستفعل .

ــ ولماذا أرادت أن تموت عارية تماماً ، لماذا ؟ كيف تفسر ذلك ؟

ـ كانت تريد الدخول الى أحضان الموت كما تدخل الى أحضان عاشق . لهذا تعرت وصففت شعرها وتجملت ...

ـ ولهذا لم تقفل الباب بالمفتاح ، اليس كذلك؟ أرجوك ، لا تحاول إقناع نفسك بأنها كانت تريد الموت حقاً .

ـ لعلها لم تكن تعلم بالضبط ما تريد . هل تعلم أنت نفسك ماذا تريد؟ من منا يعلم ما يريد؟ كانت تريد الموت ولم تكن تريده . كانت تريد الموت بمنتهى الصدق، وكانت تريد في الوقت نفسه (بمنتهى الصدق أيضاً) إرجاء التنفيذ الذي يقودها الى الموت ، والذي كانت تشعر بعظمته . أنت تدرك تماماً أنها لم تكن تريد أن يشاهدها أحد عندما ستصبح شاحبة تماماً وعفنة ومشوهة من الموت . كانت تريد أن تبدي لنا جسدها ، الجميل جداً ، والمبخس القدر كثيراً ، الذي كان ينطلق بكل أبهته للتزاوج مع الموت ؛ كانت تريد في تلك اللحظة الحاسمة على الأقل أن نرغب بذلك الجسد في الموت وأن نشتهيه .. » .

نظريـة الدكتورة :

بدأت الدكتورة التي كانت قد سكتت حتى ذلك الحين وأصغت بانتباه الى الطبيبين : « يبدو لي ما قلتماه كلاكما منطقي ، كما يمكن لإمرأة تصوره . ونظريتاكما بحد ذاتها مقنعتان بما فيه الكفاية وتنمان عن معرفة عميقة بالحياة . ليس فيهما إلا عيب واحد هو أنهما لا تحتويان على ذرة حقيقة . لم تكن اليزابيت تفكر في الانتحار ، لا في الانتحار الحقيقي ولا في الانتحار المصطنع . ولا في اي انتحار » .

استمتعت الدكتورة لبرهة بتأثير كلماتها وتابعت : « سادتي ، من الواضح أنكما تشعران بالإثم . حين عدنا من قسم الاسعاف ، تجنبتما حجرة الراحة . لم تكونا تريدان رؤيتها ثانية . أما أنا فقد تفحصتها بعناية بينما كنتما تقومان بإجراء التنفس الاصطناعي لإليزابيت . كانت

توجد ركوة قهوة على السخان . وضعت اليزابيت الماء للتسخين كـي تعد لنفسها قهوة ، وغفت . غلى الماء وأطفأ اللهب » .

عاد الطبيبان الى حجرة الراحة مع الدكتورة . كان ذلك صحيحاً ، كانت توجد ركوة قهوة على السخان وحتى بقي عليه قليل من الماء .

دهش المدير وقال : « لكن في هذه الحالة ، لماذا كانت عارية تماماً؟

ـ قالت الدكتورة : أنظر جيداً » وأشارت الى زوايا الحجرة : كان الثوب الازرق الشاحب منشوراً على الارض تحت النافذة ، وكانت حمالة النهدين تتدلى معلقة على الصيدلية ، والسروال الداخلي الأبيض ألقي أرضاً في الزاوية المقابلة . « رمت إليزابيت ملابسها في كل الزوايا ، وهذا ما يثبت أنها أرادت ولو لوحدها إجراء حفلة رقصة التعري التي ارتأيت أيها المدير أن من الحكمة منعها !

« عندما تعرت تماماً ، شعرت بنفسها متعبة بدون شك . لم يكن هذا يوافقها ، لأنها لم تكن قد تخلت عن آمالها في هذه الليلة . كانت تعلم اننا سنغادر في النهاية وأن هافل سيبقى وحيداً . لهذا طلبت أقراصاً منشطة . كانت تريد أن تحضر لنفسها القهوة فوضعت الركوة علـى السخان . بعد ذلك ، نظرت من جديد إلى جسدها ، فأثارها ذلك . يا سادتي ، كانت لدى إلزابيت مزية عليكما . لم تكن ترى رأسها . كانت إذاً بالنسبة لنفسها جميلة بدون عيب . أثارها جسدها فتمددت على الاريكة بشهوانية . لكن من الواضح أن النعاس فاجأها قبل اللذة .

ـ قال هافل : بالتأكيد . لا سيما انني أعطيتها منومات !

ـ قالت الدكتورة : هذا من لطفك . إذاً ، هل يوجد شيء ايضاً غير واضـــح ؟

ـ قال هاقل : أجل ، تذكري ما قالته لنا : لست على حافة الموت! ما زلت نابضة بالحياة ! أنا أعيش ! وهذه الكلمات الأخيرة : ليتكم تعلمون شيئاً . لكنكم لا تعلمون شيئاً . قالتها بطريقة مؤثرة جداً ، كما لو كانت كلمات وداع .

ـ قالت الدكتورة : هيا يا هاقل . كأنك لا تعلم بأن تسعاً وتسعين في المائة من الكلمات التي يتفوه بها المرء هي كلمات عابثة . هل تتكلم أنت نفسك في معظم الأحيان لأجل شيء آخر غير الكلام ؟ » .

ثرثر لأطبناء لبعض الوقت أيضاً ، ثم خرجوا ، صافح المدير والدكتورة هاقل وابتعدا .

كان الأريج يعبق في النسيم الليلي :

وصل فليسشمان أخيراً الى طريق الضاحية التي يسكن فيها عند والديه في ڤيلا صغيرة محاطة بحديقة . فتح الشبك ، ودون أن يذهب الى باب المدخل ، جلس على مقعد تنحني فوقه ورود رعتها والدته بعناية .

كان الأريج يعبق في نسيم الصيف الليلي وكلمات « مذنب » « أنانية » « محبوب » ، « موت » تدور في صدر فليسشمان وتملؤه بسعادة غامرة . كان يشعر أن أجنحة تنمو له في ظهره .

أدرك في هذا الفيض من البهجة الحزينة أنه كان محبوباً كما لم يكن كذلك قط . بالطبع كانت عدة نساء قد قدمن له آنفاً براهين ملموسة على مشاعرهن ، لكنه صار يرغم نفسه الآن على الصراحة القاسية : هل كان ذلك دوماً حباً ؟ ألم يكن يستسلم للأوهام ؟ ألم يكن يحدث له أن يتخيل أكثر مما هو موجود في الحقيقة ؟ ألم تكن كلارا على سبيل المثال منتفعة أكثر من كونها عاشقة ؟ ألم تكن تحرص على الشقة التي كان على وشك أن يزودها بها أكثر مما كانت تحرص عليه ؟ كان كل شيء يبدو باهتاً إزاء تصرف إليزابيت .

اخذت كلمات كبيرة تعبق في الهواء وراح فليسشمان يقول لنفسه بأنه ليس للحب سوى معيار وحيد : الموت . في غاية الحب الحقيقي يوجد الموت ، ووحده الحب الذي يوجد الموت في غايته هو الحب .

بدأ الأريج يعبق في النسيم وصار فليسشمان يتساءل : أي انسان سيحبه يوماً مثل تلك المرأة القبيحة ؟ لكن ما هو الجمال والقبح إزاء الحب ؟ ما هو قبح الوجه إزاء عاطفة كان سموها يعبر عن المطلق ؟

(المطلق ؟ اجل . فليسشمان هو مراهق القرية ، منذ قليل في عالم الراشدين المضطرب . يبذل ما بوسعه لكي يغوي النساء ، لكن ما يبحث عنه هو على الأخص الاحتضان المواسي ، الأبدي ، المخَلِّص ، الذي سينقذه من النسبية الفظيعة لعالم اكتشفه حديثاً) .

* * *

الفصل الرابع

عودة الدكتورة :

كان الدكتور هاقل مستلقياً منذ بضع لحظات على الأريكة ، تحت غطاء قطني رقيق ، حين سمع طرقات على الزجاج . لمح وجه الدكتورة في ضوء القمر . فتح النافذة وسأل : « ماذا يحدث ؟ » .

ـ قالت الدكتورة : افتح لي ، وتوجهت بمشية رشيقة نحو باب الجنـاح .

زرر هاقل قميصه ، ثم أطلق تنهيدة وخرج من الحجرة .

عندما فتح باب الجناح ، تقدمت الدكتورة دون أن تعطي مزيداً من الايضاحات ، وحين جلست على مقعد في قاعة المناوبة ، مقابل هاقل ، اخذت تشرح بأنها لم تستطع العودة إلى منزلها ، وأنها شعرت بالقلق على نحو مخيف ، وأنها لن تستطيع النوم وكانت تلتمس من هاقل حديثاً قصيراً آخر لكي تسترد هدوءها .

لم يكـن هاقل يصـدق كلمة واحـدة مما تقوله الدكتورة وكان على درجة من التهذيب (أو التهور) كافية من أجل أن يظهر ذلك .

لهذا قالت له الدكتورة : « بالتأكيد انت لا تصدقني ، لأنك واثق من أنني لم آت إلا للنوم معك » .

أومأ الدكتور بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت : « طبعاً ، دونجوان مغرور ! حالما تشاهدك امرأة ، فانها لا تفكر الا بهذا . وأنت ، تنجز مهمتك البائسة مكرهاً ومشمئزاً » .

أومأ هاقل من جديد بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت بعد أن أشعلت سيكارة ونفثت الدخان بلا مبالاة : « مسكيني دونجوان ، لا تخش شيئاً . لم آت لكي أزعجك . لا شيء مشترك بينك وبين الموت . كل ذلك ليس إلا مفارقات عزيزنا المدير . فأنت لا تحصل على كل شيء ، لسبب وجيه هو أنه ليست كل النساء مستعدات للاستسلام . فأنا على سبيل المثال محصنة تماماً ضدك ، يمكنني أن أعدك بذلك .

ــ أهذا ما جئت لتقوليه لي ؟

ــ ربما . جئت لأواسيك ، لأقول لك بأنك لست كالموت . وانني لن أترك نفسي عرضة للاستيلاء . » .

أخلاقية هاقل :

قال هاقل : « هذا لطف منك ، لطف الا تستسلمي وأن تأتي لتقولي لي ذلك . انك محقة ، لا يربطني شيء مع الموت . فالأمر ليس فقط اني لن احصل على إليزابيت ، بل لن أحصل عليك أيضاً .

ــ علقت الدكتورة : أوه !

ــ لا أعني بذلك لا تعجبينني . بالعكس تماماً .

ــ قالت الدكتورة : رغم كل شيء .

ــ أجل . انت تعجبينني كثيراً .

ــ إذاً ، لماذا لا تريد الحصول عليّ ؟ هل لانني لا أهتم بك ؟

ـ قال هاڤل : لا ، أظن أن لا علاقة لهذا .

ـ إذاً ، لماذا ؟

ـ لأنك عشيقة المدير .

ـ وبعـد ؟

ـ المدير غيور ، قد يحزنه هذا .

ـ قالت الدكتورة ضاحكة : وهل لديك هواجس ضمير ؟

ـ قال هاڤل : كما تعلمين ، لدي الكثير من المغامرات الغرامية مع النساء في حياتي، بحيث أنني لا أقدر، نتيجة لها ، إلا الصداقة الذكورية هذه الصداقة التي لا تلطخها حماقة الشهوانية هي القيمة الوحيدة التي عرفتها في حياتي .

ـ هل تعتبر المدير بمثابة صديق ؟

ـ لقد فعل المدير الكثير من أجلي .

ـ أجابت الدكتورة : وفعل أيضاً الأكثر لأجلي .

ـ قال هاڤل : هذا ممكن ، لكن ليس المقصود امتنان ، إنه صديق وهذا كل ما في الأمر . انه رجل رائع . ويحرص عليك . لو حاولت الحصول عليك ، لاضطررت لاعتبار نفسي وغداً » .

المدير المستغلب :

قالت الدكتورة : « لم أكن أتوقع أن أسمع من فمك مثل هـذا التقريظ المتحمس جداً للصداقة ! أكتشف فيك مظهراً جديداً تماماً

بالنسبة لي وغير متوقع مطلقاً . لا تتمتع وحسب ، على غير المتوقع ، بملكة الحس ، لكنك تستخدم هذه الملكة (وهذا مؤثر جداً) حيال سيد مسن، أشيب ومنتوف الريش لا يتبين المرء فيه إلا المضحك. هل لاحظت ذلك منذ قليل ؟ هل شاهدت كيف يستلفت الأنظار باستمرار ؟ يريد أن يبرهن دائماً على أمور لا يمكن لاحد تصديقها .

« يريد أن يبرهن أولا على أنه ظريف . أنت سمعته . أمضى الامسية في الكلام لكي لا يقول شيئاً ، كان يسلي المتفرجين ، ويعبر بكلام بارع مثل : الدكتور هاڤل كالموت ، ويختلق المفارقات عن بؤس الزواج السعيد (ما ينوف عن المائة مرة وانا اسمعه يردد هذه النغمة !) كان يحاول خداع فليسشمان (كأن ذلك يقتضي الظرف) .

« يريد ثانياً أن يُحتسب شخصاً شهماً . وفي الحقيقة ، يمقت اي شخص ما يزال لديه شعر على رأسه ، لكنه يضمر العداء في نفسه . كان يمدحك ويمدحني وكان أبوياً ورقيقاً مع إليزابيت ، وحين خدع فليسشمان حرص على الا يتبين فليسشمان ذلك .

« ثالثاً وهو الاهم ، يريد البرهنة على أنه لا يقاوم ، يحاول بيأس إخفاء سحنته اليوم تحت مظهره القديم ، الذي لم يعد موجوداً مع الأسف والذي لم يعد أي منا يتذكره . هل شاهدت كيف تذرع به بمهارة لكي يقص علينا حكاية تلك العاهرة الصغيرة التي لم تكن ترغب به ، فقط لكي يستحضر من تلك المناسبة وجهه القديم وينسى هكذا صلعه المحزن؟»

دفاعاً عن المدير :

أجاب هاڤل : « كل ما تقولينه صحيح تقريباً يا سيدتي العزيزة . لكني لا أرى في ذلك إلا اسباباً إضافية واسباباً وجيهة لحب المدير ، لأن كل هذا يخصني اكثر مما تظنين . لماذا تريدينني أن أسخر من صلع لن أفلت منه ؟ لماذا تريدينني أن اسخر من ذلك الجهد المثابر للمدير كي لا يكون ما هو عليه ؟ .

« أما ان يقبل رجل عجوز البقاء على ما هو عليه ، أي هذه الفضلة المثيرة للرثاء من نفسه ، أو لا يقبل . لكن ماذا عليه أن يفعل إن لم يقبل ؟ لا يبقى أمامه إلا التظاهر بأنه ليس ما هو عليه ، لا يبقى أمامه سوى أن يخلق بواسطة التصنع المضني ، ما لم يعده وما ضيعه ، أن يختلق فرحه وحيويته وبديته . باحياء صورة شبابه والسعي للاندماج بهـا واستبدالها بنفسه . إنني أرى نفسي في كوميديا المدير هذه ، فهو صورة مستقبلي . هكذا يبقى لي ما يكفي من القوة لرفض الاستسلام الذي هو بالتأكيد شر اسوأ من تلك الكوميديا المحزنة .

« ربما انت على دراية بلعبة المدير . لكنها لا تزيدني الا محبة له، ولن استطيع ابداً إيلامه ، وهو ما ينجم عنه أنني لن أستطيع أبـداً النوم معك » .

جـواب الدكتورة :

اجابت الدكتورة : « عزيزي الدكتور ، توجد اختلافات بيننا أقل مما تظن . انا ايضا أحبه . انا ايضا اشفق عليه ، تماما مثلك . ومدينة له اكثر منك . فلولاه ، فلولاه ، لما حصلت على مثل هذه الوظيفة الجيدة (أنت تعلم ذلك جيدا ، وكل الناس يعلمونه أكثر مما ينبغي) أنت تظن أنني اخدعه ؟ وانني اغشه ؟ وان لدي عشاقاً آخرين ؟ بأي فرح سيبلغه الناس بذلك ! لا اريد إيلام أحد ، لا هو ولا نفسي ، وانا بالتالي أقل حرية مما تخيل . إنني مقيدة تماماً . لكنني مسرورة لأن كل واحد منا فهم الآخر جيداً . لانك الرجـل الوحيد الذي يمكنني معه ان أسمح لنفسي بخيانة المدير . في الحقيقة ، انت تحبه بإخلاص ولا ترغب إطلاقاً بإيلامه . ستكون كتوماً تماماً . يمكنني الوثوق بك . يمكنني إذاً النوم معك . . » وجلست على ركبتي هافل . واخذت تحل أزراره .

ماذا فعل الدكتور هافل ؟

ماذا كان بوسعه أن يفعل . . .

الفصل الخامس

في دوامة المشاعر النبيلة :

اقبل الصباح بعد الليل ونزل فليسشمان الى الحديقة لكي يقطف منها باقة ورد . ثم استقل الترام إلى المشفى .

كانت لاليزابيت حجرة خاصة في قسم الاسعاف . جلس فليسشمان عند وسادة سريرها ، وضع الباقة على طاولة السرير وامسك يد إليزابيت لكي يجس نبضها .

سالها بعد ذلك : « هل تتحسنين ؟

ـ قالت اليزابيت : اجل »

وقال فليسشمان بصوت يفيض بالعاطفة : « ما كان يجب عليك ارتكاب حماقة كهذه يا عزيزتي .

ـ قالت اليزابيت : انك محق ، لكنني غفوت . وضعت الماء للتسخين كي اعد لنفسي القهوة وغفوت كالحمقاء » .

أخذ فليسشمان يتأمل إليزابيت بذهول ، لأنه لم يكن يتوقع مثل هذا الكرم منها : كانت تريد إعفاءه من تبكيت الضمير ، لم تكن تريد إرهاقه بحبها وكانت تنكر هذا الحب !

داعب وجنتيها ، وأخذ يرفع الكلفة معها وقد أثيرت مشاعره :
« أعرف كل شيء . لست بحاجة للكذب ، لكنني أشكرك على أكذوبتك ».

كان يدرك انه لن يستطيع أن يجد لدى أية امرأة أخرى هــذا القدر من النبل والتفاني والاخلاص ، وكاد أن يخضع لضغط الاغــراء ويطلب منها أن تصبح زوجته . لكنه تمالك نفسه في اللحظة الاخــيرة (لدى المرء دوما متسع من الوقت لتقديم طلب زواج) وقال فقط :

« إليزابيت ، إليزابيت ، عزيزتي . لأجلك جلبت هذه الورود ».

حدقت إليزابيت في فليسشمان بهيئة مخبولة وقالت : « لأجلي ؟

ــ أجل لأجلك . لانني سعيد لوجودي معك الآن . لانني سعيد من انك موجودة يا اليزابيت . لعلني احبك . لعلني أحبك كثيرا . هذا بالتأكيد سبب إضافي لكي لا نذهب أبعد من ذلك . اظن أن رجلا وإمرأة يتحابان أكثر عندما لا يعيشان سوية وعندما لا يعرف أحدهما عن الآخر إلا أمرا واحدا ، أنه يعيش ، وعندما يكون كل واحد منهما ممتنا للآخر لانه يعيش ولانهما يعلمان انهما يعيشان . وهــذا يكفيهما لكي يكونا سعيدين . أشكرك يا اليزابيت ، أشكرك على عيشك »

لم تكن اليزابيت تفهم شيئا من ذلك لكنها كانت تبتسم بابتسامة مغتبطة ، بابتسامة بلهاء ، مفعمة بموجة سعادة وموجة أمل .

ثم نهض فليسشمان ، وشد بيده على كتف اليزابيت (دلالــة حب دفين ومكنون) استدار وخرج .

عدم تأكد كل الاشياء :

قال المدير للدكتورة وهافل عندما اجتمعوا سوية في القســم :
« لقد وجدت بالتأكيد زميلتنا الجميلة ، التي تتألق تماما بالشــباب

هذا الصباح ، التفسير الأصوب للأحداث . وضعت إليزابيت الماء التسخين كي تعد لنفسها القهوة وغفت . على أي حال ، هذا ما تزعمه

ــ قالت الدكتورة : أنتم ترون .

ــ أجاب المدير : لا أرى شيئاً البتة . في نهاية المطاف لا أحد يعلم شيئاً مما جرى . ربما كانت ركوة القهوة موجودة من قبل على السخان . فاذا كانت اليزابيت تريد الانتحار بالغاز ، لماذا كانت سترفع الركوة ؟

ــ علقت الدكتورة : لكنها شرحت لك كل شيء !

ــ بعد الكوميديا التي مثلتها علينا والخوف الذي سببته لنا ، لا يدهشكما أن تحاول جعلنا نعتقد أن كل شيء حصل بسبب ركوة . لا تنسيا أن المقدم على محاولة انتحار في هذا البلد يرسل بشكل آلي الى مشفى المجانين للعلاج . هذا الاحتمال لا يعجب احداً .

ــ قالت الدكتورة : هل تستهويك قصص الإنتحار أيها المدير ؟

ــ قال المدير ضاحكا : اتمنى لو أن ضمير هاقل يعذبه لمرة واحدة» .

ندم هاقل :

التقط ضمير هاقل الآثم من التعليق التافه للمدير تأنيباً مرمزاً كانت السماوات تمليه عليه سراً فقال : « المدير محق . لم تكن بالضرورة محاولة انتحار ، لكنها ربما كانت كذلك . فضلاً عن هذا ، إذا أمكنني التكلم بصراحة ، لا ألوم إليزابيت . أخبروني ، هل توجد في الحياة قيمة واحدة مطلقة تنص على أنه يمكن أعتبار الانتحار مرفوضاً من حيث المبدأ ؟ الحب ؟ أم الصداقة ؟ أؤكد لك ان الصداقة ليست أقل هشاشة من الحب وأنه لا يمكن للمرء أن يعول بشيء على الصداقة . أم حب

الذات على الأقل ؟ أتمنى ذلك . أيها المدير ، قال هاثل بحماسة تقريباً. وكان هذا يرن بمثابة ندم ، أقسم لك على أنني لا أحب نفسي إطلاقاً .

ـ قالت الدكتورة بابتسامة : سادتي ، إذا كان هذا يجمّل حياتكم ، إذا كان هذا ينقذ نفوسكم ، لنقرر أن اليزابيت أرادت الانتحار حقاً . هل اتفقنا ؟ »

نهاية سعيدة :

قال المدير : « هذا يكفي . لنغير الموضوع . تلوث نقاشاتك يا هاثل هواء هذا الصباح الجميل ! إنني أكبرك بخمسة عشر عاما . إنني سيء الحظ لانني سعيد في الأسرة ، أي لانني لا أستطيع الطلاق . وانا تعيس في الحب لأن المرأة التي أحبها مع الأسف ليست إلا هذه الدكتورة ! ومع ذلك ، أنا سعيد على هذه الأرض ! »

ـ قالت الدكتورة للمدير بحنان غير عادي : جيد ، جيد جداً . أنا أيضا سعيدة على هذه الأرض » .

انضم فليسشمان في هذه اللحظة الى مجموعة الأطباء الثلاثة وقال : « خرجت لتوي من غرفة إليزابيت . إنها حقا فتاة شريفة الى أبعد حد . انكرت كل شيء . وتتحمل كل شيء .

ـ قال المدير ضاحكاً : أنتم ترون جيداً . ولولا قليل ، لدفعنا هاثل جميعاً الى الانتحار .

ـ قال الدكتورة : طبعا » واقتربت من النافذة . « سيكون النهار جميلا أيضا . السماء في غاية الصفاء . ما رأيك يا فليسشمان ؟ »

منذ بضعة لحظات ، كان فليسشمان يلوم نفسه تقريبا على تصرفه بنفاق متخلصاً من المشكلة بباقة ورد وببضع كلمات جميلة ، لكنه صار

يهنيء نفسه الآن على عدم تسرعه في اتخاذ القرار. التقط إشارة الدكتورة وفهمها . كان خيط المغامرة على وشك الاستمرار من النقطة التي انقطع عندها في الأمس ، حين أفشلت رائحة الغاز موعد فليسشمان مع الدكتورة . ولم يتمالك فليسشمان نفسه عن الابتسام للدكتورة ، حتى على مرأى من الدكتور الغيور .

تستمر الحكاية إذاً من حيث انتهت البارحة ، لكن فليسشمان يظن انه يعود إليها أكبر سناً بكثير وأشد عوداً . فخلفه يقف حب عظيم كالموت . يشعر بموجة تكبر في صدره ، وهي الموجة الأكثر ارتفاعا والأشد بأساً مما عرفه من قبل . لأن ما يثيره بمنتهى الشهوانية ، هو الموت : الموت الذي قدم له هدية ؛ موت ساطع ومنعش .



فليخلِ الأموات القدامى
المكان للأموات الجدد

١

كان يعود إلى منزله سالكاً طريق مدينـة بوهيميا الصغيرة التي يسكنها منذ عدد لايأس به من السنين ، مستسلماً لحياة لا فائدة ترجى منها ، ولجيران ثرثارين وفظاظة مملة تحدق به في المكتب ، وكان يسير بلا مبالاة (مثلما يمشي المرء على طريق مئات المرات المتتالية) حتى كاد يخطئها . لكنها تعرفت إليه من بعيد ، وفيما تتقدم لملاقاته ، كانت تنظر إليه بابتسامة آلت في اللحظة الأخيرة ، عندما تحاذيا ، إلى إفلات مفصلة في ذاكرته وجذبته من وسنه .

قال : « لم أفلح في التعرف عليك » لكنه كان اعتذارا أرعن أحالهما في الحال إلى موضوع مرهق كان الأجدر تجنبه : لم يلتقيا منذ خمسة عشرة عاما وقد هرم كلاهما . سألت : « هل تغيرت كثيرا ؟ » فأجابها بالنفي ، ومع أن هـذه كذبة ، فإنها لم تكن كذلك تمامـاً ، لأن هذه الابتسامة المخبوءة (التي تعبر بحياء وتواضع عن صعوبة الفرح الأبدي) كانت تأتيه حتى الآن عبر مسافة سنوات عديدة ، دون تغير ، وكانت تقلقه : لأن هذه الابتسامة تذكره بهيئة هذه المرأة القديمة بوضوح اضطره إلى بذل جهد كي ينسى تلك الابتسامة ويرى هيئتها كما أصبحت عليه الآن : إنها امرأة عجوز تقريبا .

سألها عن المكان الذي تقصده وعما تنويه ، فأجابته بأنها جاءت لإنجاز بعض الأعمال وأنه لم يعد أمامها سوى انتظار القطار الذي سيقلها إلى براغ في المساء . عبّر عن السرور الذي جلبه له لقاؤهما المفاجيء ؛ وحين وافقا على الاعتراف (بحق) أن مشربي البيرة في الحي قذران ومزدحمان ، دعاها إلى شقته التي لم تكن بعيدة ، حيث يمكنه أن يحضر لها القهوة أو الشاي ، والتي كانت على الأخص مكانا نظيفا وهادئا .

٢

كان النهار قد بدأ بداية سيئة بالنسبة لها . فزوجها مدفون في مقبرة هذه المدينة الصغيرة بناء على أمنية غريبة أفصح عنها في رغباته الاخيرة (عاشا هنا منذ ثلاثين عاما لبعض الوقت وكانا آنذاك متزوجين حديثا ، ثم أقاما في براغ حيث مات منذ عشر سنوات) . كانت إذاً قد حصلت على امتياز لمدة عشر سنوات ، واكتشفت منذ بضعة أيام أنها نسيت تجديده وأن المهلة انصرمت . فكرت في البداية بالكتابة إلى مكتب المقبرة ، لكنها حين تذكرت أن أية مراسلة مع الادارة هي مشروع طويل الأمد وعابث ، جاءت .

مع انها تحفظ عن ظهر قلب الطريق المؤدي إلى ضريح زوجها . كانت تشعر يومئذ انها ترى المقبرة للمرة الأولى . لم تفلح في العثور على الضريح وظنت أنها ضلت . فهمت اخيراً : هناك حيث كانت توجد سابقاً ، شاهدة من الصلصال مكتوب عليها اسم زوجها بحروف مذهبة ، صارت تنتصب الآن (كانت متأكدة من تعرفها على المكان من ضريحين مجاورين) شاهدة من الرخام الأسود ، منقوش عليها بحروف مذهبة اسم مجهول تماما .

ذهبت إلى مكتب المقبرة وهي مضطربة . هناك قالوا لها بأن القبور تفرّغ تلقائياً عند نهاية الامتيازات . لامتهم على عدم إخطارها بأنه كان يترتب تجديد الامتياز ، وأجابوها بأن ساحة المقبرة صغيرة وانه يجب على الموتى القدماء إخلاء المكان للموتى الجدد . كانت مغتاظة وقالت لهم ، وهي تداري بمشقة نحيبهـا ، انه ليس لديهم حس بالكرامـة الانسانية ولا احترام للآخرين ، لكنها لم تلبث أن أدركت بأن النقاش غير مجدٍ . ومثلما لم تستطع منع موت زوجها ، كانت عاجزة أمام هذا الموت الثاني ، هذا الموت الثاني لميت قديم لم يعد له الحق في الوجود حتى في عالم الموت .

عادت نحو مركز المدينة وغدا حزنها ممزوجاً بالقلق لانها كانت تتساءل كيف سيكون بمقدورها أن تشرح لابنها اختفاء ضريح الأب والاعتذار له عن اهمالها . جاء التعب بعد ذلك : لم تكن تدري كيف تقضي ساعات الانتظار الطويلة حتى يحين موعد انطلاق القطار الذي سيقلها الى براغ ، لانها لم تكن تعرف احداً هنا ، ولم تكن ترغب أيضاً بالقيام بنزهة ترفيهية ، فقد تبدلت المدينة خلال سنوات الى درجة ان الامكنة القديمة المألوفة اضحت تبدي لها اليوم وجها غريبا تماما . لذلك لبت بامتنان دعوة الصديق القديم (نصف المنسي) الذي التقته للتو صدفة : اتيح لها غسل يديها في الحمام ، والجلوس على كرسي ناعم ومريح (كانت ساقاها تؤلمانها) ومعاينة الحجرة والاصغاء إلى صوت غليان الماء خلف الحاجز الذي يفصل زاوية المطبخ عن الشقة .

٣

كان قد بلغ مؤخراً الخامسة والثلاثين من عمره وقد اكتشف فجاة أن شعره مبعثر بوضوح على قمة جمجمته . إنه ليس صلعاً بعد ، لكنه ينذر به الآن (كان الشعر يفسح مجالاً لظهور الجلد) : صار محتماً تماما وآتيا عما قريب . من المثير للسخرية بالتأكيد افتعال مشكلة حيوية عن تساقط شعره ، لكنه كان يدرك أن الصلع سيبدل وجهه وأن الحياة بأحد مظاهرها (الأفضل بوضوح) تدنو من نهايتها .

تساءل عندئذ عن الحساب الدقيق لتلك الشخصية (طويلة الشعر) التي تموت شيئا فشيئا ، وعما عاشته تلك الشخصية بالضبط واية أفراح عرفتها بالضبط ، وتأكد بذهول أن أفراحه كانت أمراً تافهاً جداً ، كان يشعر بالخجل في نفسه لا لشيء إلا لهذه الفكرة ، أجل كان الحياء يعتريه : لأنه من المشين الاقامة فترة طويلة على هذه الأرض والعيش قليلا .

ماذا كان يعني بالضبط حين كان يقول بأنه عاش قليلا ؟ هل كان يفكر بالأسفار والعمل والحياة العامة والرياضة والنساء ؟ كان يفكر بكل ذلك حتما ، لكن بادىء ذي بدء في النساء ، لانه كان يتألم قليلا من حياته الفقيرة في الميادين الاخرى ؛ لكنه لم يكن بوسعه اعتبار نفسه مذنباً في ذلك الفقر : فرغم كل شيء ليس خطأه إذا كانت مهنته دون منفعة مادية ودون أفق ؛ ليس خطأه إذا لم يستطع السفر وهو لا يملك من أجل ذلك المال ولا تصريح قسم الموظفين ، وليس خطأه إذا انكسر الغضروف العضلي في سن العشرين وإذا اضطر للتخلي عن الرياضة التي يحبها . أما الميدان الانثوي فقد كان بالنسبة له مجال الحرية الخاصة ، وفيه لم يكن بمقدوره التذرع بأي عذر . كان بمقدوره في ذلك الميدان إظهار من يكون وإبراز ثرائه ، فقد أصبحت النساء بالنسبة له المعيار الوحيد المؤكد لكثافته الحيوية .

لكنه ليس محظوظاً ! لم ينجح ذلك أبداً مع النساء : فقد ظل الخوف يشله حتى بلغ الخامسة والعشرين (مع أنه كان فتى وسيماً ، بعد ذلك وقع في الحب ، فتزوج وسعى خلال سبع سنوات إلى إقناع نفسه بأنه يمكن للمرء أن يجد في امرأة واحدة لانهائية الإثارة الجنسية ثم طلّق ، فاخلى تبرير أحادية الزواج (وهم الإثارة الجنسية) المكان للرغبة الوقحة والممتعة حيال النساء (المبرقشة بمهارة لو فرتهن) ، لكن تلك الشهوة والجرأة كانتا ، مع الأسف مكبوحتين بشدة من جراء وضع مالي صعب (كان عليه أن يدفع نفقة شرعية إلى زوجته السابقة عن طفل سمح له برؤيته مرة أو مرتين في العام) وبسبب ظروف الحياة في مدينة صغيرة كان فضول الجيران فيها غير محدود مثلما كان اختيار النساء للاغواء مقيدا .

انقضى الزمن بعد ذلك بسرعة ، وفجأة القى نفسه أمام المرآة البيضوية المركزة فوق مغسلة الحمام ، ويمسك في يده اليمنى مرآة دائرية صغيرة فوق رأسه ، وأخذ ينظر إلى صلعته الوليدة مذهولاً ، فأدرك الحقيقة السخيفة على حين غرة (دون أي تمهيد) : لن يسترجع

ما تركه يضيع . صار يعاني منذ ذلك الحين من مزاج سيء دائم وتراوده أفكار الانتحار . بالطبع (ولابد من لفت الانتباه الى ذلك كي لا تحسبوه مصاباً بالهستيريا أو أحمق : كان يعي ما تحتويه تلك الأفكار من جانب هزلي وانه لن ينفذها أبداً (كان يضحك على نفسه لخاطر رسالة الوداع: لن أقبل أبداً أن أصبح أصلع : الوداع !) لكن يكفي أن تلك الأفكار ، بل الأفلاطونيات ، خطرت على باله . فلنحاول فهم ذلك : كانت تراوده هذه الأفكار تقريباً مثلما تراود عداء الماراثون الرغبة القاهرة في الانسحاب حين يتأكد في منتصف السباق أنه على وشك الخسارة (وفوق ذلك ، بسبب هفواته) . هو أيضا كان يعتبر أنه خسر السباق ولم تكن لديه الرغبة بمتابعة الجري .

والآن ، أخذ ينحني فوق الطاولة الصغيرة ويضع فنجان قهوة أمام الأريكة (التي سيجلس عليها بعد ذلك) وفنجاناً آخر أمام المقعد المريح الذي جلست عليه الزائرة ، وراح يقول لنفسه إن الدهاء الغريب للقدر جعله يصادف هذه المرأة التي عشقها فيما مضى بجنون والتي تركها تفر آنذاك (بسبب هفواته) ، بالضبط حين صار يلفي نفسه في وضع نفسي سيء وحين لم يعد بالامكان استرجاع شيء .

٤

لن تكتشف بالتأكيد أنها كانت في نظره المرأة التي تركها تفر ؛ كانت ما تزال طبعا تتذكر الليلة التي أمضياها سوية ، وتتذكر هيئته حينئذ (كان في سن العشرين ، ولم يكن يعرف ارتداء ملابسه ، كان يخجل ويسليها بتصرفاته المراهقة) ، تتذكر أيضاً المرأة التي كانتها آنذاك (كانت توشك على بلوغ الأربعين من عمرها وكان ظمأ للجمال يقذفها إلى أحضان مجهولين ، لكنها تتخلى عنها في الحال ؛ لأنها فكرت دائماً أنه يجب على حياتها أن تشبه رقصة ساحرة ، وكانت تخشى أن تتحول خياناتها الزوجية إلى عادة مشينة) .

أجل ، كانت تلزم نفسها بالجمال ، كما يلزم آخرون أنفسهم بأمر أخلاقي ؛ فلو اكتشفت القبح في حياتها ، لاستسلمت لليأس . وبما أنها كانت تدرك أنه لا بد لمضيفها من أن يجدها مسنة بعد خمسة عشر عاماً (مع كل القبح الذي ينطوي عليه ذلك) ، فقد سارعت إلى بسط مروحة وهمية أمام وجهها ، وغمرته بالأسئلة : كانت تريد معرفة كيف جاء إلى هذه المدينة ؛ تسأله عن عمله ؛ تمتدح شقته التي تجدها ظريفة بإطلالتها على سطوح المدينة (قالت بأنه ليس في تلك الإطلالة شيء غير مألوف طبعاً ، لكنها تعطي إحساساً بالحرية) ؛ سمت مقلدي بعض الصور المؤطرة للوحات الإنطباعيين (لم يكن ذلك صعباً لأنه من المؤكد وجود الصور نفسها الرخيصة الثمن عند معظم المثقفين التشيكيين المفلسين) ، ثم نهضت وهي تمسك فنجانها بيدها ، وانحنت فوق المكتب الصغير حيث كانت عدة صور فوتوغرافية مرتبة في إطار (تأكدت أنه لا توجد صورة فوتوغرافية واحدة لامرأة شابة) وسألت فيما إذا كان وجه المرأة المسنة الذي يشاهد في إحدى تلك الصور هو وجه والدته (فوافق) .

سألها بعد ذلك عن تلك الأعمال التي جاءت تنجزها كما أخبرته عند لقائهما . لم تكن لديها أية رغبة بالكلام عن المقبرة (كانت هنا ، في الطابق الخامس من هذه العمارة ، كالمعلقة فوق السطوح وكذلك كان يراودها ، إحساس ممتع جداً ، يعلو أيضاً فوق حياتها) ، ولأنه أخذ يلح ، انتهت إلى الإعتراف (لكن باختصار شديد ، لأن الوقاحة الناجمة عن صراحة زائدة كانت غريبة عنها دوماً) بأنها سكنت قديماً في هذه المدينة ، وقد مضى على ذلك سنوات كثيرة ، وأن زوجها دُفن هنا (لم تذكر شيئاً عن اختفاء الضريح) وأنها كانت تأتي في كل السنوات إلى هنا مع ابنها ، في عيد القديسين .

٥

« كل السنوات ؟ » كان هــذا الإعلان يحزنه وفكر من جديد في دهاء القدر ؛ فلو أنه التقاها قبل ست سنوات عندما جاء للإقامة في هذه المدينة ، لظل كل شيء ممكناً : لما كانت بعد متغضنة بالزمن إلى هذا الحد ، ولما كانت مختلفة إلى هذا الحد عن صورة المرأة التي أحبها قبل خمسة عشر عاماً ؛ ولحظي بالقدرة على تذليل الفرق والتقاط الصورتين (الصورة الحالية وصورة الماضي) كصورة واحدة . لكن كلتا الصورتين أصبحتا متباعدتين الآن بشدة .

شربت فنجان القهوة ، وراحت تتكلم بينما أخذ يحاول أن يحدد بالضبط مدى هذا التحول الذي كانت بسببه على وشك أن تفر منه للمرة الثانية : الوجه متغضن (وهو ما تحاول طبقات عديدة من المسحوق التستر عليه دون جدوى) ؛ العنق ذابل (وهو ما كانت تسعى لإخفائه دون جدوى تحت قبة مرتفعة) ؛ الوجنتان متهدلتان ؛ أما الشعر فقد كان الشيب يخطه (لكنه ظل جميلاً تقريباً !) . لكن ما كان يجذبه اكثر هــو اليدان (اللتان لم يفلح المسحوق ولا الحمرة بتجميلهما مــع الأسف) : كانت شبكة زرقاء من الأوردة التي تبرز عليهما مجسمة تكاد تصنع منهما يدي رجل .

بدأ الأسف يمتزج فيه بالغضب ، فرغب بالكحول كي ينسى أن هذا اللقاء حدث متأخراً جداً ، سألها إذا كانت ترغب بالكونياك (لديه زجاجة مودعة في الخزانة خلف الحاجز) ، فأجابته بالنفي وتذكر أنها لم تكن تشرب منذ خمسة عشر عاماً تقريبا ، بالتأكيد مخافة أن يحرم الكحول لعبتها من الاعتدال الظريف . وحين شاهد ايماءة يدها الرشيقة التي أشارت بها إلى رفض عرض الكونياك ، أدرك أن هــذا السحر الظريف وهذا الإغراء وهذا اللطف الذي فتنه ما زال على حاله مع أنه توارى تحت قناع الزمن ، وما زال أيضاً جذاباً حتى وراء السياج .

عندما قال لنفسه بأن هذا السياج هو سياج الزمن ، شعر حيالها بشفقة بالغة ، وتلك الشفقة قربتها منه (هذه المرأة الفاتنة قديماً ، التي كانت تفقده النطق) ورغب بالثرثرة معها مدة طويلة كصديق مع صديقة) في جو ازرق خال من الكآبة . لذلك أخذ يتكلم بتزلف والمح إلى تخلصه من افكاره التشاؤمية التي كانت تزعجه منذ بعض الوقت . وطبعاً لم يذكر شيئاً عن صلعه الوليد (مثلما لم تذكر شيئاً عن الضريح المختفي) ، وحولت رؤية الصلع القربان إلى عبارات شبه فلسفية بشأن الزمن الذي ينصرم بأسرع من أن يكون بمقدور الإنسان تعقبه ، وبشأن الحياة الموسومة بحتمية التحلل ، وإلى عبارات أخرى مماثلة ، كان ينتظر من زائرته أن ترد عليها بملاحظة حنونة ، لكنه انتظر عبثاً .

« قالت بحدة تقريباً : لا أحب كل هذه النقاشات ، كل ما ذكرته سطحي على نحو مرعب » .

٦

لم تكن تحب أن يتكلم أحد عن الشيخوخة وعن الموت ، لأنه كانت توجد في هذه الأحاديث صورة القبح الجسدي الذي تنفر منه . رددت مراراً على مضيفها ، بانفعال تقريباً ، أن آراءه سطحية ، فالإنسان كما تزعم هو أكثر من جسده الذي يذوي ، لأن الأساس هو عمل الإنسان وما يتركه الإنسان للآخرين . لم تكن هذه حجة جديدة من جانبها ، فقد التجأت إليها منذ ثلاثين عاماً ، عندما هامت بزوج المستقبل الذي كان يكبرها بتسعة عشر عاماً ، لم تكف أبداً عن احترامه بصدق (رغم كل خياناتها التي لم يكن يعرف شيئاً عنها أو التي لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عنها) وكانت تسعى لإقناع نفسها بأن ذكاء زوجها وسيرته يعوضان عن العبء الثقيل لسنواته .

اجاب بضحكة مريرة : « أي عمل أسألك عنه ! اي عمل تريدين أن نتركه ! » .

لم تكن تريد الإستشهاد بالمرحوم زوجها ، مع أنها مقتنعة بالقيمة المستمرة لكل ماأنجزه ، اكتفت إذا بالاجابة بأن كل انسان في هذه الدنيا ينجز مهمته ، مهما كانت متواضعة ، وأن ذلك ، ذلك وحسب يعطيه قيمته ، بدأت بالكلام عن نفسها بتحيز ، عن عملها في ناد ثقافي في ضواحي براغ ، عن الندوات والأمسيات الشعرية التي كانت تنظمها فيه، وراحت تتكلم (بتشدق بدا له غير لائق) « عن وجوه الجمهور الممتنة » ، ثم قالت بأنه جميل أن لديها طفلاً وأنها تشاهد قسماته الخاصة تتبدل شيئاً فشيئاً (كان ابنها يشبهها) لتصبح وجه رجل ، وأنه جميل أن تهبه كل ما يمكن لأم أن تهبه لابنها وأن تتلاشى بهدوء في آثار حياتها .

لم تكن مصادفة أنها أخذت بالكلام عن ابنها. كان حاضراً يومئذ في كل فكرة من أفكارها وأخذ يلومها على إخفاقها في المقبرة ، كان هذا غريباً ، لم تسمح أبداً لرجل أن يفرض عليها إرادته ، لكن ابنها كان يتسلط عليها دون أن تتوصل لمعرفة الطريقة ، وإذا كان إخفاق المقبرة قد شوشها إلى هذا الحد ، فلأنها على الأخص كانت تشعر بنفسها مذنبة أمامه وتخشى عتابه . كان ابنها يحرص بعناية فائقة على ان تحيي كما ينبغي ذكرى والده (فهو الذي يلح كل عام في عيد القديسين لكي لا ينسيا الذهاب إلى المقبرة !) وكانت تشتبه في ذلك منذ زمن طويل : فقد أملى حب الاب المتوفى هذا الهم أقل مما أملته الرغبة في اضطهاد الأم، والحفاظ عليها في الحدود الملائمة لأرملة ، لأن الأمر كان هكذا ، مع أنه لم يفصح عن ذلك أبداً ومع أنها جاهدت (عبثاً) لتجاهله : كان ينفر من أمه لدى التفكير بأنه قد يكون لديها حياة جنسية وينظر باشمئزاز إلى كل ما يمكن أن يستمر من رغبتها الجنسية (حتى كافتراض) ولأن فكرة الجنس مرتبطة بفكرة الشباب ، فقد كان ينظر إلى كل ما يمكن أن يستمر فيها من الشباب باشمئزاز ، لم يعد طفلا وكان شباب والدته (المقترن بعدوانية الاهتمام الأمومي) يشكل حائلاً بينه وبين شباب الفتيات اللواتي بدأن باستمالته، كانت تلزمه أم مسنة لكي يستطيع احتمال حبها وليكون قادراً على حبها. ومع انها ادركت احياناً أنه يدفعها هكذا إلى القبر ، فقد انتهت

إلى الاستسلام له والخضوع لضغطه، وحتى تجميل هذا الضغط بالاقتناع أن جمال حياتها يصدر تماماً عن ذلك التلاشي الهادىء خلف حياة أخرى . وباسم هذا التجميل (الذي لولاه لظلت تغضنات وجهها تثيرها كثيراً) راحت تساجل مضيفها بحماسة غير متوقعة .

لكن مضيفها انحنى فجأة على الطاولة المنخفضة التي تفصل بينهما، داعب يدها وقال : « اعذريني إذا تفوهت بالحماقات ، فأنت تعلمين جيداً أنني كنت دائماً أحمق » .

٧

لم تغضبه مساجلتهما ، بل على العكس تماما ، فالزائرة لم تنفك عن تأكيد هويتها في نظره : في الاحتجاج الذي رفعته ضد أحاديثه التشاؤمية (ولكن ألم يكن ذلك قبل كل شيء احتجاجاً ضد القبح والذوق الناشز ؟) كان يلقاها كما عهدها ، بحيث أن شخصيتها ومغامرتهما القديمة ما تزالا تشغلان تفكيره ولم يكن يرغب بعد إلا بشيء واحد ، ألا يأتي ما يعكر هذا الجو المزرق المناسب جداً للحديث (لهذا السبب داعب يدها ووصف نفسه بالأحمق) وأن يستطيع محادثتها عما يبدو له أساسياً الآن : مغامرتهما المشتركة ؛ لأنه غدا مقتنعاً أنه عاش معها شيئاً ما غريباً تماماً لم تكن تدركه ، ولذلك صار يترتب عليه أن يبحث عنه ويجد بنفسه التعابير الدقيقة .

لم يكن يتذكر بعد حتى كيف تعارفا، بالتأكيد كانت قد جاءت للانضمام إلى فريق من الأصدقاء الطلبة ، ولكنه كان ما يزال يذكر الحانة الصغيرة البراغية الهادئة التي تواعدا على اللقاء فيها أول مرة : كان جالساً مقابلها في مقعد مفروش بالمخمل الأحمر ، وكان متضايقاً وصامتاً ، وفي الوقت نفسه منتشياً تماماً بالإيماءات اللطيفة التي تعبر بواسطتها عن أنسها به . كان يسعى لتصور (دون أن يتجرأ على الأقل بتحقيق تلك الأحلام) كيف سيكون حالها إذا عانقها وعراها وأحبها ، لكنه لم

يفلح في ذلك . أجل ، كان ذلك غريبا : حاول مرارا تخيلها في الحب الجسدي لكن دون جدوى : كان وجهها يتابع النظر إليه بالبسمة الهادئة اللطيفة نفسها ، ولم يكن بوسعه (حتى بالكد المتواصل للمخيلة) أن يشاهد عليه التكشيرة الغرامية المثيرة . كانت تفر كلياً من مخيلته .

كانت تلك حالة لم تتكرر ثانية قط في حياته : فقد ألفى نفسه في مواجهة الغرابة . كان قد عاش تلك الفترة الوجيزة جدا من الحياة (الفترة الفردوسية) التي لم تشبع فيها المخيلة بعد بالتجربة ولم تصبح روتيناً والتي يعرف فيها المرء ويعلم القليل من الأمور بحيث أن الغرابة ما تزال موجودة ؛ وحين تكون الغرابة على وشك التحول إلى حقيقة (دون وساطة المتخيل ، ودون جسر الصور) فان المرء يصاب بالذعر والدوار . وبالفعل اعتراه الدوار حين لم يفلح بعد عدة لقاءات أخرى في التصميم على شيء ، وبدات تسأله بالتفصيل وبفضول معبر عن حجرة دراسته التي يشغلها في المدينة الجامعية ، وهي تضطره تقريبا إلى دعوتهـــا .

حجرة المدينة الجامعية التي كان يسكنها مع رفيق وعده بثمن قدح عرق ، بعدم العودة قبل منتصف الليل في ذلك المساء ، لم تكن تشبه شقة اليوم : سريران معدنيان وخزانة ومصبـــاح مبهر دون واقي ، وفوضى رهيبة . رتب الحجرة ، وفي الساعة السابعة (كانت دقيقة دائما ، وكان ذلك جزءا من لباقتها) طرقت الباب . كانا في شهر أيلول وبدأ الليل يحل ببطء. جلسا على طرف السرير المعدني واخذا يتعانقان. عم الظلام بعد ذلك أكثر فأكثر ولم يكن يرغب باضاءة النور ، لأنه كان سعيدا لعدم قدرتها على رؤيته ، وكان يأمل أن تخفف العتمة الضيق الذي كان لا بد أن يشعر به عندما سيخلع ملابسه أمامها (ولطالما كان يعرف بطريقة ما حل أزرار صدار النساء ، فقد كان يتعرى من ملابسه أمامهن بتهور محتشم) لكنه في تلك المرة ، تردد طويلا قبل أن يفك الزر الأول من قميصها (كان يقول لنفسه أنه يجب على حركة التعرية الأولى أن تكون حركة رشيقة ولطيفة خليقة بالرجال المجربين ، وكان يخشى

من افتضاح قلة خبرته) بحيث أنهـا نهضت من تلقاء نفسها وسألته بابتسامة : « أليس الأجدر بي خلع هذا الدرع ؟... » وبدأت بخلع ملابسها ؛ لكن الظلام كان طاغياً ولم يكن يرى إلا ظلال حركاتها . تعرى بسرعة ولم يشعر بالاطمئنان الأكيد إلا عندما بدأا (بفضل الصبر الذي اظهرته) بالمضاجعة . راح ينظر إلى وجهها لكن دلالته كانت تفلت منه في الظلام ولم ينجح حتى في تمييز قسماته . كان يأسف لعدم اضاءة النور لكن اصبحت تبدو له استحالة النهوض الآن لكي يتوجه نحو الباب ويوصل قاطع التيار ؛ إذاً كان ما يزال يتعب عينيه دون جدوى : لم يكن يميزها ؛ وكان يشعر بحب امرأة اخرى ؛ انسانة مستعارة ومجردة ودون كيان .

جلست بعد ذلك فوقه (وحتى ذلك الحين ، لم يكن يشاهد منها إلا ظلها المنتصب) وقالت له ، وهي تمايل وركيها ، شيئاً ما مخنوقاً في تمتمة ، لكن كان من العسير معرفة ما إذا كانت تقول ذلك له أم لنفسها . لم يكن يميز الكلمات وسألها عما كانت تقوله . وظلت تهمس ، وحتى عندما ضمها من جديد ، لم يستطع فهم كلماتها .



كانت تصغي إلى مضيفها ، وهي مفتونة أكثر فأكثر بالتفاصيل التي نسيتها منذ وقت طويل : فعلى سبيل المثال ذلك الرداء الازرق الغامق من نسيج الصيف الخفيف الذي كانت تشبه فيه ، كما يقول ، ملاكاً مقدساً (أجل تتذكر ذلك الرداء) أو تلك الشكالة الثخينة المثلومة التي كانت تضعها في شعرها والتي تمنحها نبلاً مندرساً لسيدة نبيلة ، أو تلك العادة التي كانت تلازمها في الحانة التي يتواعدان فيها ، يطلبها دائما شاي بقصب السكر (خطيئتها الكحولية الوحيدة) وكان كل ذلك يجرفها بمتعة ، بعيدا عن المقبرة وعن الضريح المندثر ، بعيداً عن ساقيها المتألمين وعن نادي الثقافة ، وبعيداً عن عيني ابنها المعاتبتين . راحت تفكر ، آه ، رغم ما أنا عليه الآن ، فانني لم أعش عبثاً

طالما أن القليل من شبابي ما يزال يعيش في ذاكرة هذا الرجل ؛ وقالت لنفسها بعد ذلك بأن هذا تأكيد جديد لقناعتها :كل قيمة الكائن الانساني تتوقف على تلك الصعوبة في التفوق على ذاته ، في أن يكون خارج نفسه، ان يكون في الآخرين ولأجل الآخرين .

كانت تصغي إليه ولا تمانعه حين كان يداعب بين القينة والأخرى يدها ؛ كانت هذه الحركة تنسجم مع الجو الودي للمحادثة وينبعث منها غموض مهديء (لمن كان يوجه هذه الحركة ؟ للمرأة التي يتكلم عنها أم للمرأة التي يكلمها ؟) ؛ وفضلا عن ذلك كان هذا الرجل الذي يداعبها يعجبها ؛ فقد كانت تقول لنفسها بانه يعجبها أكثر من الشاب الفتي منذ خمسة عشر عاماً الذي كانت رعونته ، إن كانت ما تزال تتذكر ذلك جيدا ، مضنية .

حين وصل في حكايته إلى اللحظة التي كان فيها شبحها المتحرك ينتصب فوقه ، والتي كان يحاول فيها عبثاً تلقف كلماتها ، صمت لبرهة وسألته برفق (بسذاجة ، كانه يعرف هذه الكلمات وكأنه يريد بعد سنوات كثيرة ان يذكرها لها كسر منسي) : « وماذا كنتُ أقول ؟ »

٩

أجاب : « لا أدري » وفي الحقيقة لم يكن يعلم ذلك ؛ فقد هربت آنذاك ليس فقط من خياله ، بل ومن حواسه ، من نظره كما من سمعه. عندما أشعل النور في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، كانت قد ارتدت ملابسها ثانية ، وكان كل شيء عليها أملس من جديد، فاتناً براقاً وكاملا؛ وكان يبحث عبثاً عن الرابطة بين هذا الوجه المضيء وذاك الوجه الذي كان يخمنه في الظلام قبل بضع لحظات . لم يكونا قد افترقا بعد في ذلك المساء ، وبات الآن يسترد ذكراها : كان يرغم نفسه على تصور كيف كان وجهها (المستتر بالظلام) وجسدها (المستتر بالظلام) قبل لحظات ، اثناء المضاجعة . عبثاً ؛ كانت تهرب دائماً من خياله .

صمم على أن يضاجعها المرة القادمة في النور . لكن لم توجد مرة قادمة . كانت تتجنبه بمهارة وتهذيب وكان يستسلم للشك واليأس . ربما كانا قد تضاجعا جيداً ، لكنه كان يعلم أيضاً إلى أي مدى كان مستحيلا آنفاً ، وكان يخجله ذلك ؛ كان يشعر بنفسه مذنباً لأنها كانت تتجنبه ، ولم يعد يتجرأ على الإلحاح على لقائها .

« أخبريني ، لماذا كنت تتجنبينني ؟

ـ قالت بصوت أكثر رقة : أرجوك . مضى زمن طويل على ذلك . ما أدراني بالسبب ؟ » وبينما ما يزال يلح ، قالت « لا ينبغي العودة دائماً إلى الماضي . ويكفي الآن أن يخصص المرء له قسطاً من الوقت على مضض ، ذاك الماضي ! » كانت قد قالت هذا لتهدىء إلحاحه قليلاً (وتلك العبارة الأخيرة الملفوظة بتنهيدة خفيفة ، كانت تعيدها بالتأكيد إلى زيارتها الأخيرة للمقبرة) ، لكنه فسر تصريحها بطريقة أخرى : كان هذا التصريح يهدف لجعله يفهم فجاة وبتبرو (هذا أمر واضح) أنه لا توجد امرأتان (امرأة اليوم والمرأة القديمة) بل امرأة واحدة بعينها وأن تلك المرأة التي تهربت منه منذ خمسة عشر عاماً ، أضحت الآن حاضرة هنا وفي متناول يده .

قال بنبرة معبرة : « إنك محقة ، الحاضر أهم » وحين قال ذلك ، راح ينظر بحدة إلى وجهها الباسم الذي تكشف شفتاه المنفرجتان عن صف أسنان ؛ وفي تلك اللحظة ، خطرت على باله ذكرى : في ذلك المساء ، في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، أمسكت أصابعه ووضعتها في فمها ، عضتها بقوة إلى درجة أنها آلمته وفي تلك الأثناء ، كان يتحسس فمها برمته ، وما زال يتذكر ذلك بوضوح ؛ فمن أحد جوانبه كان ينقصه بعض الأسنان (لم ينزعج من هذا الاكتشاف عندئذ ؛ بل على العكس ؛ كان هذا العيب الصغير ينسجم مع عمر رفيقته ، العمر الذي كان يستهويه ويستثيره) لكنه استطاع الآن ، وهو ينظر في الشق الذي ينفتح بين الأسنان وزاوية الفم ، التأكد من أن الأسنان ناصعة البياض ولا ينقصها

اي سن ؛ وقد أغاظه ذلك : كانت الصورتان تنفصلان عن بعضهما مرة اخرى ، لكنه لم يكن يريد الإقرار بذلك ، وكان يريد جمعهما من جديد ، بالقوة و الاكراه ، وقال : « الا ترغبين حقاً بالكونياك ؟ » وفيما كانت ترفض بابتسامة ساحرة وقد رفعت حاجبيها بلطف ، انسحب الى خلف الحاجز واخرج زجاجة الكونياك ، واما لها نحو فمه وشرب بسرعة . قال لنفسه بعد ذلك أنها ستكتشف من تنفسه ما قام به في الخفاء لتوه. اخذ كاسين والزجاجة وحملهما الى الحجرة . هزت رأسها من جديد فقال « على الاقل بشكل رمزي » وملأ الكأسين . صدم قدحه مع قدحها: « لكي لا أتكلم عنك بعد إلا في الحاضر ! » أفرغ قدحه وبللت شفتيها ؛ ثم جلس بجوارها على ذراع الكرسي وامسك يديها .

١٠

لم تكن تشتبه حين رافقته إلى شقته أن اي اتصال قد يحدث ؛ وفي الحال اعتراها الذعر من ذلك ، كما لو أن هذا الاتصال حدث قبل أن تسنح لها فرصة التحضير له (هذه الحالة من التحضير الدائم كما تعرفها المرأة الناضجة ، كانت قد فقدتها منذ زمن طويل) ؛ (قد يتبين المرء في ذلك الذعر أمراً ما مشتركاً مع ذعر المراهقة التي قبلها للمرة الأولى لأنه إذا كانت المراهقة غير مستعدة بعد وإذا كانت الزائرة لم تعد مستعدة ، فإن هذه « لم تعد » وهذه « بعد » مرتبطتان خفية كما ترتبط الشيخوخة والطفولة) اجلسها بعد ذلك على الأريكة وضمها إلى صدره وداعب جسدها كله ، وصارت تشعر بنفسها هشة بين ذراعيه (أجل ، هشة : لأن جسدها فقد منذ زمن طويل تلك الشبقية الجامحة التي كانت توصل إلى عضلاتها إيقاع التشجنات والارتخاءات ونشاط مئات الإنعراجات المذبة) .

لكن ذعر الوهلة الأولى تبدد بسرعة تحت تأثير مداعباته ، وكانت هي ، التي اصبحت بعيدة جداً عن المرأة الناضجة الجميلة التي كانتها سابقاً ، تعود بسرعة تبعث على الدوار إلى ذلك الكائن المختفي — في

حساسيتها ووعيها وتستعيد الاطمئنان القديم لعاشقة خبيرة ، وبما انها تشعر بهذا الاطمئنان منذ زمن طويل ، فقد أصبحت تشعر به الآن بحدة أكثر من أي وقت مضى ، فجسدها الذي كان ، منذ برهة ، مايزال مذهولا ومذعورا ، مستسلما ولينا ، صار يتحرك ويستجيب الآن لمداعباته الخاصة وأصبحت تحس وضوح ومعرفة هذه المداعبات ؛ فيفعمها ذلك بالغبطة ، هذه المداعبات ، والطريقة التي تضع بها وجهها على جسده ، والحركات العذبة التي يستجيب بها نصف جسدها العلوي للعناق ، كانت تجد كل ذلك ليس كأمر معلوم ، أمر كانت تعلمه وتنجزه الآن برضى فاتر ، لكن كأمر ما ضروري لها ، تمتزج معه في الثمل والإثارة ، كأنها تعثر على قارتها الأليفة . (آه ، قارة الجمال !) التي نفيت منها والتي تعود إليها باحتفالية .

أصبح ابنها الآن بعيداً الغاية ، وعندما احتضنها مضيفها ، لمحته يلومها في زاوية تفكيرها المتوارية ، لكنه اختفى بسرعة فائقة ، ولم يعد يوجد الآن على بعد مائة فرسخ من جميع الجهات إلا هي والرجل الذي يداعبها ويحتضنها . لكن كل شيء تبدل حين وضع فمه على فمها وأراد فتح شفتيها بلسانه : عادت إلى الواقع . كزت بشدة على أسنانها (صارت تشعر بطقم اسنانها الملتصق بفكيها ، وبات لديها إحساس بأنه يملأ فمها) ثم دفعته برفق : « كلا . حقاً . ارجوك . لا ينبغي » .

وبينما راح يتابع إلحاحه ، امسكت معصميه وكررت رفضها ، ثم قالت له (أخذت تتكلم بجهد ، لكنها كانت تعلم أنه لا بد لها من التكلم اذا ارادت ان يطيعها) أن أوان التضاجع قد فات ، وذكرته بعمرها الذي بلغته ، قالت بأنهما إذا تضاجعا فلن يشعر حيالها إلا بالتقزز ، وستكون حزينة من ذلك ، لأن ما قاله لها عن مغامرتهما القديمة كان جميلاً ومهماً بالنسبة لها ؛ كان جسدها ميتاً وذاوياً ، لكنها أصبحت الآن تعلم أنه بقي منه شيء ما روحي ، شيء ما يشبه شعاعاً ما يزال يلتمع ، حتى بعد انطفاء النجمة ، وليس مهماً أن تشيخ ما دام شبابها سليماً ، ويظهر في كائن آخر . طفقت تقول الدفاع عن

نفسها : « شيدت لي صرحاً في ذاكرتك . ليس بوسعنا السماح بتهديه ، افهمني . ليس لك الحق ، ليس لك الحق بذلك »

١١

أكد لها بأنها كانت دوما جميلة ، وانه لم يتغير شيء في الواقع ، وان المرء يبقى على حاله دائما ، لكنه كان يعلم انه يكذب عليها وانها محقة : كان يعرف حق المعرفة حساسيته المفرطة بخصوص الأمور الجسدية ، والاشمئزاز الذي يتضح أكثر في كل عام ، كان يشعر به حيال عيوب الجسد الأنثوي ، ويدفعه أكثر فأكثر خلال هذه السنوات الأخيرة إلى مقربة من النساء الشابات الفارغات ، كما كان يتبين بمرارة ، والحمقاوات أكثر فأكثر ، أجل ، لم يكن في وسعه إيجاد اي شك في هذا الصدد : فلو أقنعها بالمضاجعة ، لوجد في النتيجة التقزز ، وذلك التقزز لا يمكنه إلا تلطيخ ، ليس فقط اللحظة الحالية ، بل صورة المرأة المحبوبة منذ زمن طويل ، تلك الصورة التي ما زال يحتفظ بها في ذاكرته كجوهرة .

كان يعلم كل ذلك ، لكن كل ذلك لم يكن سوى أفكار ، والأفكار لا تستطيع شيئا حيال الارادة التي لا تعرف إلا شيئا واحدا : المرأة التي عذبته بعدم قابليتها للمس وعدم قابليتها للإمساك طوال خمسة عشر عاماً ، تلك المرأة كانت حاضرة ؛ يوشك أن يستطيع أخيراً رؤيتها في النور الساطع ، يوشك أن يتمكن أخيرا ، في جسدها اليوم ، من قراءة جسدها القديم ، وقراءة وجهها القديم في وجهها اليوم . يوشك أخيرا أن يتمكن من اكتشاف ايمائيتها العاشقة الخارقة ، وانقباضها العاشق الخارق .

عانق كتفيها ونظر في عينيها : « لا ترفضي ، لا معنى للمقاومة »

١٢

لكنها هزت راسها ، لأنها تعلم انه ليس من المحال على الاطلاق مقاومته ؛ كانت تعرف الرجال وموقفهم حيال جسد المرأة ، وكانت

تعلم انه حتى المثالية الاكثر حماسة في الحب لا يمكنها أن تنتزع عن سطح الجسد طاقته المخيفة ؛ طبعاً ، ما تزال تمتلك رشاقة مناسبة تماما ، حافظت على أبعادها الأولية ، وما تزال تمتلك مظهر الشباب تماماً ، لا سيما عندما تكون مرتدية ملابسها ، لكنها كانت تعلم أنها بتعريها ستظهر تغضنات عنقها وأنها ستعري جرحها الطويل ، الناجم عن عملية في المعدة أجرتها قبل عشرة اعوام .

وكلما كانت تستعيد وعيها بمظهرها الجسدي الحالي الذي نسيته منذ بضعة لحظات ، كانت همومها صبيحة اليوم تصعد من اعماق الطريق حتى نافذة الشقة (التي اعتقدت انها عالية بما فيه الكفاية حتى تضعها في منأى عن حياتها) وتملأ الحجرة ، وتستقر على اللوحات المؤطرة ، وعلى الأريكة ، وعلى الطاولة ، وعلى فنجان القهوة الفارغ ، وكان وجه ابنها يقود مواكبها ؛ فحين لمحته ، احمرت وبحثت عن ملجأ في مكان ما من قرارة نفسها : كادت المجنونة التي كانتها تبتعد عن الطريق الذي رسمه لها والذي اتبعته حتى الآن بالابتسامة والكلمات الحماسية ؛ كانت قد ارادت (حتى لبرهة قصيرة) الفرار ، وإذا بها يترتب عليها استئناف طريقها بوداعة والاعتراف بانه الدرب الوحيد الذي يلائمها . كان وجه ابنها ساخراً حتى أنها شعرت بنفسها في غمرة خجلها ، انها تصبح صغيرة اكثر فاكثر أمامه ، لكي لا تكون بعد ، في قمة الذل ، إلا الجرح الذي كان على معدتها .

كان مضيفها يمسكها من كتفيها ويردد : « لن يكون هناك معنى للمقاومة » وكانت تهز رأسها ، لكن بطريقة عفوية تماما ، لأن عينيها لم تكونا تشاهدان المضيف ، بل وجه الابن الغريم الذي كانت تمقته اكثر كلما شعرت بنفسها أصغر واكثر ضعة . كانت تسمعه يلومها على الضريح المختفي ، ومن تشوش ذاكرتها ، وباحتقار لكل منطق ، انبعثت هذه الجملة التي صرختها في وجهه بحنق : يجب على الأموات القدامى إخلاء المكان للأموات الجدد يا صغيري !

١٣

لم يكن بوسعه بعد الاشتباه بأن ذلك سيؤول إلى التقزز ، لأن النظرة التي صار يوجهها إليهـا الآن (نظـرة منقبـة وثاقبـة) لم تكن مستثناة من بعض التقـزز ، ولكن الأمـر الغريب أن ذلك لم يكـن يضايقـه ، بل يثيره ويهيجـه ، كأنه كان يتمنى هـذا التقزز : كانت رغبة الجنس تقترب فيه من رغبة التقزز ، وكانت رغبته في أن يقـرأ على جسدها ما اضطر إلى تجاهله منذ زمن طويل تمتزج برغبة تلطيخ السر المفضوح حديثا في الحال .

من أين كانت تأتيه هذه الشهوة ؟ سواء أشعر بها أم لا ، كانت فرصة وحيدة تقدم له : كانت زائرته تجسد بالنسبة له كل ما لـم ينله ، وكل ما فر منه ، وكل ما كان غيابه يجعله لا يحتمل عمره الآن مع شعره الذي بدأ يسقط وهذه النتيجة الفارغـة المثيرة الشفقة ؛ وهو الذي أدرك ذلك بوضوح أو اشتبه به بغموض ، صار بوسعه الآن ان يحرم من المعنى كل أفراحه التي حرم منها (والتي كانت الوانها المثيرة تجعل حياته بلا لون على نحـو مؤسف) ، أصبح بوسعه اكتشاف انها كانت ساخرة وانها لم تكن إلا مظهراً وإخفاقاً ، وانها لم تكن إلا غباراً مثاراً ، اصبح بوسعه الثأر منها وإذلالها والقضاء عليها .

أخذ يردد وهو يرغم نفسه على جذبها إليه « لا تقاوميني » .

١٤

كانت قسمات ابنها الهازئة ماتزال نصب عينيها وعندما جذبها مضيفها إليه بقوة ، قالت : « اتركني لبرهة من فضلك » وهربت منه ، كانت تخشى في الحقيقـة من قطع شريط أفكارهـا : كلن يجب على الأموات القدامى إخلاء المكان للأموات الجدد والنصب لا تفيد بشيء ، حتى ذلك النصب الذي رفعه الرجل الموجود إلى جوارها الآن في ذاكرته

طيلة خمسة عشر يوماً لم يكن يفيد بشيء ، أضحت كل النصب من أجل لا شيء ، من اجل لا شيء . ذلك ما راحت تقوله لابنها في تفكيرها ، وأخذت تنظر برضى ثاري إلى وجهه الذي ينقبض ويصرخ فيها : « لم تتكلمي ابداً يا أمي هكذا ! » كانت تعلم جيداً أنها لم تتكلم هكذا ابداً ، لكنها غدت في هذه اللحظة مفعمة بنور يجعل كل شيء جلياً تماماً .

ليس لها الحق بإعطاء النصب الافضلية على الحياة ؛ فنصبها ليس له بعد مبرر واحد للوجود : بوسعها تسخيره الآن لمتعة جسدها المحتقر، لأن الرجل الجالس بجوارها يعجبها ، إنه شاب ، والأرجح (وحتى شبه مؤكد) أنه الرجل الاخير الذي يعجبها والذي يمكنها الحصول عليه ، وهذا وحده المهم ، وإذا الهمته بعد ذلك التقزز وهدمت نصبها في تفكيره ، فستسخر من ذلك ، لأن هذا النصب موجود خارج نفسها ، كما توجد خارج نفسها ذاكرة ذاك الرجل وتفكيره ، وليس مهماً ما يوجد خارج نفسها ، « لم تتكلمي ابداً يا أمي هكذا ! » كانت تسمع تعجب ابنها ، لكنها لم تكن تعيرها انتباهاً . كانت تبتسم .

قالت برقة : « إنك محق ، لماذا سأقاوم ؟ » ونهضت . ثم بدات تحل ازرار ثوبها بهدوء . كان المساء مايزال بعيداً . هذه المرة كان الضياء يعم في الحجرة .



لـــن يضحـــك احـــد

١

قالت لي كلارا : « اسكب لي كأس نبيذ آخر » فأذعنت ، ولكي نشرب زجاجة النبيذ تذرعنا بحجة عادية لكنها تستوقف : فقد قبضت يومئذ مبلغاً كبيراً لقاء دراسة طويلة نشرتها مجلة تاريخ الفن .

وإذا كان قد قيض لدراستي أن تنشر ، فإن ذلك لم يتم بيسر . لأن ما كتبته لم يكن سوى ترهات ومهاترات كلامية . ولذلك رفض اعضاء هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي الكبار في السن والمحافظون النص الذي عهدت به أخيراً إلى مجلة منافسة ، صحيح أنها اقل شأناً ، لكن محرريها أكثر شباباً وطيشاً .

كان ساعي البريد قد أحضر لي إلى الكلية حوالة مصرفية بالإضافة إلى رسالة . ولم تكن رسالة هامة لذلك تصفحتها بسرعة في الصباح وأنا مزهو بمكانتي الجديدة . لكنني بعد عودتي إلى المنزل ، وبينما كنا نقترب من منتصف الليل ، والنبيذ في الزجاجة يتناقص ، تناولت الرسالة عن مكتبي وقرأتها على كلارا بغرض التسلية :

« الرفيق العزيز ـ واسمح لنفسي باستخدام عبارة ـ الزميل العزيز ـ اعذر رجلا لم تكلمه أبداً في حياتك بأن يبيح لنفسه الحق بمراسلتك . اتوجه إليك راجيا منك أن تتكرم بقراءة المقالة المرفقة ، لا اعرفك شخصيا لكنني احترمك ، لأنك في نظري الرجل الذي بدت لي دائماً آراؤه ومنطقه واستنتاجاته تعزز بطريقة مدهشة نتائج بحوثي الشخصية ... » ثم يسهب في تقريظ مواهبي ويقدم لي إلتماسا : يطلب مني أن اسدي له معروفاً بكتابة تعليق قراءتي إلى مجلة الفكر التشكيلي

التي ما زالت ترفض وتذم مقالته منذ ستة أشهر . وقد اخبروه بأن رايي سيكون حاسـما بحيث أصبحت أملـه الوحيد منـذ ذلك الحين وبصيص الضوء الوحيد في دياجيره العنيدة .

كنت اتبادل مع كلارا انواع الفكاهات عن السيد زاتيروكي الـذي سحرنا اسمه الرنان ؛ وهي فكاهات ودية بالتأكيد ، لأن التقريظ الذي وجهه إلي جعلني سمحا ، ولا سيما وأن زجاجة النبيذ الفاخر في متناول يدي . وقد جعلتني تلك السماحة الغامرة في تلك اللحظات الراسخة في الذاكرة أشعر بالحب حيال جميع الناس . وبما أنه من غير الممكن تقديم هدايا لكل الناس فقد كنت أقدم بعضها إلى كلارا . وهي وإن لم تكن هدايا ، فهي وعود على أية حال .

كانت كلارا البالغة من العمر عشرين عاما فتاة من أسرة طيبة ، لماذا أقول طيبة وليس أسرة راقية ! فقد طُرِدَ والدها ، وهو مدير بنك سابق ومن ثم ممثل البرجوازيـة الكبيرة ، من مدينة براغ حوالي عـام ١٩٥٠ وذهب للإقامة في قرية سيلاكوفيس الواقعة على مسافة بعيدة من العاصمة . أما ابنته التي حصلت على درجات منخفضة في قسم الملاك الاداري ، فقد كانت تعمل خياطة أمام آلة خياطة في ورشة كبيرة تابعـة لمؤسسة الالبسة الجاهزة في براغ . في ذلك المساء وانا جالس مقابلها ، كنت استميلها نحوي عن طريق التفاخر أمامها دون ترو بحسنات الوظيفة التي اعدها بالحصول عليها بمساعدة أصدقائي . أكدت لها بأنه من غير المقبول أن تضيع فتاة في غاية اللطف جمالها أمام آلة خياطة وقررت بأن عليها أن تصبح عارضة أزياء .

لم تعارضني كلارا وقضينا الليل في وفاق سعيد .

٢

ها نحن نجتاز الحاضر بعيون معصوبة ، اقصى ما بوسعنا الشعور به واكتشافه هو أننا ما زلنا نحيا ، فيما بعد وحسب ، وعندما تزول الغشاوة ونسترجع الماضي ، ندرك ما عشناه ونفهم معناه .

كنت أحسب في ذاك المساء أنني اشرب نخب نجاحي ولم يراودني اي شك بأن ذلك تدشين رسمي لنهايتي .

ولأنني لم أشتبه بشيء ، فقد استيقظت في اليوم التالي مبتهجا ، وبينما كانت كلارا ما تزال غافية بعمق تناولت المقالة المرفقة برسالة السيد زاتيروكي ورحت أقراها في فراشي باستخفاف ممتع .

لم تكن المقالة المعنونة بـ « معلم الرسم التشيكي ميكولاس اليس » تستحق حتى تلك النصف الساعة اللاهية التي أمضيتها في قراءتها . فقد كانت عبارة عن لمة من افكار مبتذلة مجمعة دون ادنى ترابط منطقي ودن اية فكرة مبتكرة .

كانت بالتاكيد حماقة ، هـذا ما اكده لي هاتفيا في اليوم نفسه الدكتور كالوزيك رئيس تحرير مجلة الفكر التشكيلي (وهو ذو شخصية سمجة على العموم) فقد اتصل بي في الكلية وقال لي : « هل تلقيت مقالة السيد زاتيروكي ؟ حسنا ، تكرم علي بتحرير تعليقك ، لقد انتقد خمسة اخصائيين مقالته ، لكنه ما يزال يلح ويحسب انك المرجع الوحيد والفريد ، اكتب في بضع سطور أن مقالته سخيفة ، بوسعك القيام بذلك، ويمكنك ان تكون لاذعا ، وهكذا سيدعنا وشأننا » .

لكن امرا ما في دخيلي تمرد : لماذا يترتب علي ، انا على وجه التحديد ، ان اصبح جلاد السيد زاتيروكي ؟ وهل ساقبض راتب رئيس التحرير لقاء ذلك ؟ ومن جهة اخرى ما زلت اتذكر أن مجلة الفكر التشكيلي ارتأت بحذر رفض دراستي ؛ عدا عن أن اسم السيد زاتيروكي اقترن في ذهني بذكرى كلارا وزجاجة نبيذ وامسية جميلة . اخيراً لن انكر ، وهذا ينسجم مع الطبيعة الانسانية ، بأنه يمكنني أن اعد على اصابع يدي وحتى إصبع واحدة الناس الذين يعتبرونني « المرجع الوحيد والفريد » فلماذا اجعل من هذا المعجب الوحيد غريما لي ؟

انتهت المكالمة مع كالوزيك ببضع كلمات مازحة وغامضة ، كان بوسع كل واحد منا أن يعتبرها كما يشاء ، هو كوعد وأنا كتملص ، ثم اغلقت الهاتف وانا مصمم على عـدم كتابة تعليق القراءة بصـدد مقالة السيد زاتيروكي .

وهكذا تناولت ورقـة رسائل من درجي وكتبت رسـالة للسيد زاتيروكي تجنبت فيها بحرص إبداء اي رأي حول عمله وشرحت له أن أفكاري حول فن الرسم في القرن السابع عشر تعتبر على العموم خاطئة ، لا سيما في هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي ، بحيث يخشى أن يؤذيه تدخلي اكثر من أن يفيده . وفي الوقت نفسه كنت أغدق على السـيد زاتيروكي بكلام ودي يرغمه على تبين مظهر التعاطف معه .

وحالما وضعت تلك الرسالة في صندوق البريد ، نسيت السـيد زاتيروكي . لكنه لم ينسني .

٣

وذات يوم ، بعد أن انهيت محاضرتي (فانا أدرس مادة تاريخ الرسم) جاءت السيدة ماري تطرق باب الصف ، وهي سكرتيرة وسيدة لطيفة مسنة تعد لي القهوة وتجيب بأنني لست موجوداً عندما تتصل بالهاتف أصوات أنثوية غير مرغوبة . اطلت برأسها وقالت لي بأنه يوجد سيـد ينتظرني .

لا أشعر بالرهبة من السادة . فاستأذنت طلابي بالإنصراف وخرجت منشرح الصدر إلى الممر حيث حياني سيد ذو قامة قصيرة ويرتدي طقماً أسود بال وقميصاً أبيض . ثم أخبرني بلاحترام فائق انه يدعى زاتيروكي .

أدخلت زائري إلى حجرة فارغة وأجلسته على كرسي مريح وبدأت الحديث بنبرة مرحة ، فتكلمت عن كل شيء وعن لاشيء ، عن صيف رديء نمضيه وعن معارض براغ . كان السيد زاتيروكي يوافقني بتهذيب على سخافاتي لكنه يحاول ربط كل منها مباشرة بمقالته التي وجدت فجأة بيننا بفحواها المكنون مثل مغناطيس لا يقاوم .

« قلت أخيراً : كنت سأكتب عن طيب خاطر تعليقاً حول عملك ، لكنني أوضحتُ لك في رسالتي بأنه ما من أحد يعتبرني أخصائياً في فن الرسم التشيكي في القرن التاسع عشر وبانني لست على علاقة طيبة مع هيئة تحرير مجلة النزعة التشيكية التي تعتبرني حداثوياً متمكناً ، حتى ان الراي المؤيد من طرفي لا يمكن إلا أن يؤذيك .

ـ أجاب السيد زاتيروكي بسرعة : أوه ! إنك متواضع جداً ! كيف يمكن لأخصائي مثلك أن يكون متشائماً من موقفه ! قيل لي في هيئة التحرير بأن كل شيء أصبح بعد الآن مرهوناً برأيك . فإن كنت راضٍ عن مقالتي ، ستنشر . أنت فرصتي الوحيدة . وهذا العمل يمثل ثلاث سنوات من الدراسات والبحوث . كل شيء الآن بين يديك » .

بأي استهتار ومن أي معدن صدىء نسبك حيلنا ! لم يكن أمامي مفر من إجابة السيد زاتيروكي على طلبه ، وحين رفعت بصري عفوياً لكي انظر إليه مباشرة، شاهدت نظارة صغيرة عتيقة وايضاً تغضناً عميقاً حازماً يخدد جبهته عمودياً . وفي لحظة صفاء وجيزة ، سرت رعدة في أوصالي : لم يكن ذلك التغضن الحذر والمثابر يعبر فقط عن الجهد الذهني لصاحبه العاكف على رسوم ميكولاس اليس ، بل كان يعبر أيضاً عن قوة إرادة نادرة . ولأنني فقدت كل نباهتي ، لم أعد أوفق في العثور على الاعتذارات اللبقة بما فيه الكفاية . كنت أعلم بأنني لن أكتب التعليق ، لكنني اعلم أيضاً بأنني عاجز عن مصارحة رجل متوسل بذلك وجهاً لوجه .

رحت ابتسم واتفيء بالوعود الغامضة ، فشكرني السيد زاتيروكي قائلا بانه سيعود عما قريب للاستعلام عن الموضوع ،ثم غادرته والابتسامات تتزاحم على ثغري .

وفعلا عاد بعد بضعة أيام ، فنجحت في تفاديه بمهارة ، لكنهم أخبروني في اليوم التالي بانه سأل عني ثانية في الكلية . ادركت أن الأمر يسوء ، فذهبت في الحال للقاء السيدة ماري لاتخاذ التدابير اللازمة .

« من فضلك يا ماري ، إذا ما عاد ذلك السيد وسأل عني فقولي له بانني سافرت في بعثة دراسية إلى المانيا وانني لن أعود قبل شهر . امر آخر : موعد جميع محاضراتي يومي الثلاثاء والأربعاء . بعد الآن سألقي محاضراتي يومي الخميس والجمعة . سيعلم طلابي فقط بذلك فلا تخبري احداً بهذا ولا تعدلي البرنامج . يجب أن أبقى متخفياً » .

٤

جاء السيد زاتيروكي فعلا بعد فترة وجيزة يسأل عني في الكلية وبدا يائساً عندما اخبرته السكرتيرة باني سافرت على عجل إلى المانيا . « هذا مستحيل ! يترتب على السيد المداون كتابة تعليق على مقالتي ! كيف استطاع السفر هكذا ؟ ــ ردت السيدة ماري بسرعة : لا أعلم شيئاً عن ذلك لكنه سيعود بعد شهر . ــ تذمر السيد زاتيروكي قائلاً : شهر أيضاً الا تعرفين عنوانه في المانيا ؟ ــ قالت السيدة ماري : لا أعرفه » .

ونعمت بالهدوء طوال شهر .

لكن الشهر انقضى بأسرع مما كنت اتصور وعاد السيد زاتيروكي إلى مكتب السكرتيرة . قالت له السيدة ماري : « لا ، لم يعد بعد » وحين التقتني ، سألتني بنبرة متوسلة : « عاد صاحبك ثانية ، فماذا تريدني أن أقول له ؟ ــ قولي له بأنني مصاب باليرقان في المانيا وانني نزيل المشفى في يينا » هتف السيد زاتيروكي حين أخبرته السكرتيرة بالنبأ بعد بضعة

أيام : « في المشفى ؟ لكن هذا مستحيل ، لا بد للسيد المعاون من كتابة تعليق القراءة على مقالتي ! ــ قالت السكرتيرة بنبرة تعنيف : يا سيد زاتيروكي ، السيد المعاون مصاب بمرض خطير في الغربة وأنت لا تفكر إلا بمقالتك ! » غاص رأس السيد زاتيروكي بين كتفيه وخرج ، لكنه حضر من جديد بعد خمسة عشر يوماً : « أرسلت رسالة مسجلة إلى يينا . فعادت الرسالة إلي ثانية ! » وفي اليوم التالي قالت لي السيدة ماري : « سأصبح مجنونة من صاحبك . لا تغضب ، لكن ماذا كنت تريدني أن أقول لـه ؟ قلتُ له بأنك عـدت ، فعليك أن تتـدبر أمرك بنفسك معه ! » .

لم ألم السيدة ماري ، فقد كانت تبذل قصارى جهدها وفوق ذلك لم أكن عازما على الاعتراف بهزيمتي . كنت أعلم أنني صعب المنال . ولم أعد أحيا إلا متخفياً ، فألقي محاضراتي في الخفاء يومي الخميس والجمعة ، وأحضر يومي الثلاثاء والأربعاء متخفيا أيضا ، البد متواريا في عمارة مقابل الكلية وأتسلى بمنظر السيد زاتيروكي الذي يترصد خروجي من الكلية . كنت راغب بوضع لحية وشعر مستعارين . وأحسب نفسي شارلوك هولمز وجاك ليفنترور ، والرجل الخفي يجوب المدينة . كنت في غاية البهجة .

لكن الأمر انتهى بالسيد زاتيروكي ذات يوم إلى التعب من الترصد وتمادى على السيدة ماري « لكن متى يلقي الرفيق المعاون محاضراته ؟ فاجابت السيدة ماري بسرعـة : ليس عليك سوى مراجعة البرنامج . وأشارت إلى لوحة مربعـة على الحائط حيث توقيت المحاضرات موضح بدقة نموذجية .

ــ قال السيد زاتيروكي الذي لم ينخدع بذلك : أعرف ، لكن الرفيق لا يأتي أبداً لإلقاء محاضراته يوم الثلاثاء ولا يوم الأربعاء . هل هو متوقف عن العمل ؟

ـ أجابت ماري بضيق : كلا »

وعندئذ اهان الرجل القصير السيدة ماري . وبخها لأنها لم تضع البرنامج بدقة . سألها بسخرية إن كان يحق لها تجاهل الموعد الذي يلقي فيه الأساتذة محاضراتهم وأعلن انه سيقدم شكوى ضدها . ثم زعق وصرح أنه سيشكو ايضاً الرفيق المعاون الذي يتغيب عن محاضراته ، سألها إن كان مدير الجامعة موجودا .

ولسوء الحظ كان مدير الجامعة موجودا .

طرق السيد زاتيروكي باب مكتبه ودخل . ثم عاد بعد عشر دقائق إلى مكتب السيدة ماري وسألها بجفاف عن عنوان منزلي الشخصي .

« قالت ماري : ٢٠ شارع سكالنيكوفا ، في ليتوميسل .

ـ وكيف ذلك ، في ليتوميسل ؟

ـ ليس لدى السيد المعاون إلا منزل مؤقت في براغ ولا يرغب أن أخبرك بعنوانه ...

ـ صاح الرجل القصير بصوت مرتعش : إنني مصر على معرفة عنوان منزل السيد المعاون في براغ » .

وهنت عزيمة السيدة ماري تماماً . فكتبت عنوان سقيفتي وملجأي البائس وخلوتي السعيدة التي أصبحت مطرودا منها .

٥

أجل ، في ليتوميسل عنوان إقامتي الدائم . فهناك أمي وذكريات أبي ؛ وكلما اتيحت لي الفرصة ، اغادر براغ كي اذهب للعمل والدراسة في المنزل ، في مسكن أمي الصغير . بحيث انني احتفظت بعنوان والدتي

كعنوان دائم لاقامتي . اما في براغ ، فلم أفلح في العثور حتى على شقة صغيرة مناسبة مع أن ذلك ضروري وعادي ، وكنت اقطن في الضواحي مستأجراً سقيفة صغيرة مستقلة تحت السقوف ، آوي إليها ما أتاحت لي الحياة سبيلا لذلك حتى أتحاشى مع صاحباتي العابرات اللقاء العابث بالزائرين المقيتين .

لا يمكنني إذاً الادعـاء بأن سمعتي في العمارة كانت طاهرة النزيل تماما . وفوق ذلك ، أسكنت في حجرتي مرارا ، اثناء قضائي لاجازاتي في ليتوميسل ، رفاقي الذين كانوا يمرحون فيها لدرجة أن أحداً في المنزل لم يكن يفلح في إغماض جفنيه طوال الليل . كان كل هذا يثير سخط بعض المستأجرين الذين راحوا يشنون ضدي حملة شعواء أخذت تتبدى من حـين لآخر في الآراء التي يتداولهـا بشـأني مجلس الحي وحتى مكتب الشكاوى في دائرة الاسكان .

بدات كلارا في الفترة التي اتحدث عنهـا تشعر بمشقة المجيء من سيلاكوفيس للعمل في براغ ، فقررت النوم عندي ، بادئ ذي بـدء ، بخجل وفي الحالات الطارئة ، ثم أودعت ثوبا وبعد ذلك عدة أثواب ، وخلال فترة وجيزة انحشرت بزتاي في أسفل الخزانة وتحولت سقيفتي إلى صالون نسائي .

كنت أشعر بميل شديد نحو كلارا ؛ ولانه يسرني أن يلتفت الناس إلينا لدى خروجنا معاً ، ولأنها تصغرني بثلاثة عشرة عاماً وهذا ما كان يزيد من هيبتي في عيون طلابي ؛ وباختصار كان لدي ألف سبب للتمسك بها . ومع ذلك لم أكن أرغب بأن يعرف الناس أنها تسكن عندي . فقد كنت أخشى أن يتهجموا على مالك منزلي الطيب ، وهو رجل مسن يبدو وقورا وغير مهتم بأمري ، وكنت أخاف أن يأتي ذات يوم ممتعضا ومغموما لكي يرجوني أن أطرد صديقتي حتى يحافظ على سمعته الطيبة . لذلك تلقت كلارا تعليمات صارمة تلزمها بعدم فتح الباب لأحد .

يومئذ ، كانت وحيدة في المنزل . كان نهارا جميلا ومشمسا ، أما جو السقيفة فخانق تقريبا . كانت قد استلقت على اريكتي عارية واستغرقت في تأمل السقف .

عندئذ بدأ الباب يطرق .

لم يكن ثمة شيء يدعو للقلق ، بما انه لا يوجد جرس على باب السقيفة ، فالزائرون مضطرون لقرعه . إذاً لم تكن تعكر هذه الضوضاء صفو كلارا ولم يخطر ببالها ان تقطع تأملها السقف . لكن الطرق المتوالي على الباب ظل مستمراً ؛ فقد كان يتواصل على غير العادة بهدوء ومثابرة غامضة . وانتهى الأمر بكلارا لأن تصبح عصبية ، فراحت تتخيل أمام الباب سيداً يتفحص ببرود وعناية ياقة سترته ، سيداً سيسألها بعد ذلك بفظاظة لماذا لم تفتح الباب ، وعما كانت تخفيه وفيما إذا كانت مصرحة بعنوانها . رزحت تحت وطأة الشعور بالذنب وكفت عن التحديق بالسقف واجالت بصرها إلى المكان الذي وضعت فيه ملابسها . لكن الطرقات كانت لجوجة حتى انها لم تجد في غمرة اضطرابها سوى سترتي الواقية من المطر المعلقة في المدخل . ارتدتها وفتحت الباب .

وبدل ان تشاهد على العتبة وجهاً خبيثاً فضولياً ، فوجئت برجل قصير يحييها : « هل السيد المعاون في منزله ؟ — لا ، لقد خرج — قال الرجل القصير : خسارة ، ثم اعتذر بتهذيب : على السيد المعاون كتابة تعليق القراءة على مقالة الفتها . هو وعدني بذلك وقد أصبح هذا الأمر ملحاً الآن . إذا سمحت ، أود أن أترك له رسالة على كل حال » .

ناولت كلارا الرجل القصير ورقة وقلم رصاص . وفي المساء قرات بأن مصير مقالته حول ميكولاس اليس اضحى بين يدي وأن السيد زاتيروكي ينتظر باحترام تحريري للتعليق الموعود . اضاف بأنه سيسال عني ثانية في الكلية .

٦

أخبرتني السيدة ماري في اليوم التالي بأن السيد زاتيروكي توعدها واهانها وكاد أن يقدم شكوى ضدها ؛ كان صوت المسكينة يتهدج ، وتوشك أن تذرف الدموع ؛ فاعتراني الغيظ هذه المرة . كنت أدرك وحسب أن السيدة ماري التي استمتعت حتى ذلك الحين بذاك الجزء من لعبة التخفي (بدافع التعاطف معي أكثر من دافع اللهو الصريح) ، باتت تشعر الآن بالإهانة وبالطبع تعتبرني سبب همومها . وحين اضفتُ إلى هذه الإهانات اضطرار السيدة ماري للبوح بعنوان ملحقي ، وانه طرق بابي طيلة عشر دقائق واخاف كلارا ، فإن غيظي تحول إلى غضب .

وبينما كنت حاضراً ، أتمشى في مكتب السيدة ماري ، واشعر بالندم والغيظ واتخيل طريقة الانتقام ، فتح الباب وظهر السيد زاتيروكي .

حين شاهدني ، أشرق وجهه بالسعادة . انحنى وحياني باحترام .

لقد وصل باكراً قبل ان افرغ من تدبير خطة انتقامي .

سألني إن كنت قد استلمت رسالته في الأمس .

لم احر جواباً .

كرر سؤاله .

اجبت اخيراً : « اجـل

ـ وهل ستكتب التعليق ؟ »

الفيته امامي : هزيلاً وعنيداً ومخيفاً ؛ كنت أرى التغضن العمودي الذي يرسم على جبهته علامة شغف فريد ؛ رحت أتملى تلك العلامة فأدركت أنها عبارة عن مستقيم محدد بنقطتين : بتعليق القراءة وبمقالته ؛

وانه ما عدا آفة هذا الخط المهووس ، ليس في حياته شيء سوى تزهد خليق بقديس . واستسلمت لعدوانية منقذة .

قلت : « آمل ان تدرك بأنه لم يعد لدي شيء اقوله لك بعدما حصل في الأمس .

ـ لا افهمك .

ـ لا تتظاهر بما لا تضمر . لقد اخبرتني بكل شيء . لن يفيدك الإنكار .

ـ كرر الرجل القصير من جديد ، لكن بنبرة اكثر حزماً هذه المرة : لا افهمك » .

اتخذت نبرة مرحة وتقريباً ودية : « اسمع يا سيد زاتيروكي ، لا ارغب بلومك . انا ايضاً زير نساء وافهمك . انا ايضاً لو كنت مكانك لراودت فتاة جميلة عن نفسها بسرور ، إن الفيت نفسي وحيداً معها في شقة وإذا كانت عارية تحت واقي المطر » .

امتقع لون الرجل القصير : « هذه إهانة !

ـ لا ، إنها الحقيقة يا سيد زايتروكي .

ـ هل اخبرتك السيدة بذلك ؟

ـ إنها لا تخفي اسرارها عني .

ـ هذه إهانة أيها الرفيق المعاون ، إنني متزوج ! عندي زوجة ! ولدي اطفال » تقدم الرجل القصير خطوة إلى الأمام ، فاضطررت للانكفاء إلى الخلف .

« وهذا ظرف مشدد للعقوبة يا زاتيروكي .

ــ ماذا تعني ؟

ــ اعني أن الزواج بالنسبة لزير النساء هو حالة مشددة للعقوبة .

ــ قال السيد زايتروكي بنبرة متوعدة : ستتراجع عن هـــذه الكلمـــات !

ــ قلت : موافق ! الزواج بالنسبة لزير النساء ليس حالة مشددة للعقوبة . لا أهمية لهذا ! قلت لك بأنني لست عاتباً عليك وأنني أفهمك تماماً . لكن رغم كل شيء ثمة أمر لا أحتمله ، وهو أنك تستطيع مطالبة رجل بتحرير تعليق القراءة حول مقالتك بينما تحاول إغراء صديقته .

ــ الرفيق المعاون ! إن من يطلب التعليق هو الســـيد كالوزيك الحائز على دكتوراه في الآداب ورئيس تحريـــر مجلة الفكـــر التشكيلي ، المجلة الدورية الصادرة بإشراف أكاديمية العلوم ، وعليك أن تكتبه !

ــ اختر ! التعليق أم صديقتي . لا يمكنك أن تبغي كليهما .

ــ هتف السيد زايتروكي وقد وقع فريسة غضب يائس : « ما هذا السلوك ! »

أمر غريب ، فقد صار يراودني شعور مفاجيء بأن السيد زاتيروكي نوى حقيقة إغـــراء كلارا . انفجرت بدوري ورحت أصيح : « أتسمح لنفسك بوعظي ؟ انت الذي يفترض بك أن تقـــدم لي ما بوســـعك من الاعتذارات أمام سكرتيرتي ! »

وأوليت ظهري للسيد زايتروكي الذي خرج من الحجرة مترنحاً ويائســـاً .

« الحمد لله ! » قلت مطلقاً تنهيدة بعد هذه المعركة الصعبة لكن منتصراً ، واضفت من اجل السيدة ماري : « اعتقد انه سيريحني الآن من تعليق القراءة ! »

« ولماذا لا تريد أن تحرر له ذلك التعليق ؟

ـ لأن مقالته يا عزيزتي ماري عبارة عن سلسلة من السخافات .

ـ ولماذا لا تكتب تعليقاً لتقول فيه بأنها سلسلة من السخافات ؟

ـ ولماذا علي انا كتابة ذلك ؟ ولماذا يترتب علي انا ان اصنع لنفسي أعـداء ؟ »

كانت السيدة ماري تنظر إلي وعلى محياها ابتسامة عريضة عندما فتح الباب من جديد ، فظهر السيد زايتروكي ماداً ذراعه امامه :

« سنرى من سيقدم الاعتذارات للآخر ! »

قذف هذه الكلمات بصوت متهدج واختفى .



لم أعد اذكر بدقة ، في اليوم نفسه ام بعد بضعة ايام ، وجدنا مغلفاً دون عنوان في صندوق البريد . كان المغلف يحتوي على ورقة قرانـا فيها هـذه الكلمات المكتوبة بخط غليظ ورديء : سيدتي ! تعالي إلى منزلي يوم الأحد لكي نتكلم عن الإهانة التي لحقت بزوجي ! ساكون في المنزل طيـلة النهار . إذا لم تاتِ ، سـألفي نفسي مضطرة للتصرف . آنا زاتيروكي ، براغ ، الشارع ٣ ، داليمولوفا ١٤ .

شعرت كلارا بالخوف وراحت تحملني المسؤولية. طردت مخاوفها بظاهر يدي وأكدت لها ان معنى الحياة هو تماماً اللهو مع الحياة ، وبما

ان الحياة رتيبة جداً لذلك يجب تخليصها من ركودها . وعلى الانسان دوماً أن يسْرِجَ احصنة عديدة من أجل مغامرات جديدة وإلا قد يتعفر في التراب مثل جندي مشاة متعب . عندما اجابتني كلارا بأنها لا تنوي الإسراج لأية مغامرة ، وعدتها بأنها لن تقابل أبداً السيد زاتيروكي ولا زوجته ، وان المغامرة التي اخترت طوعاً امتطاءها ، سأروضها دون مساعدة احد .

استوقفنا البواب في الصباح حين كنا نخرج من العمارة . البواب ليس غريماً . كنت قد منحته عن دراية خمسين كوروناً منذ بعض الوقت واصبحت مستسلماً منذ ذلك الحين لاعتقاد مبهج بأنه اعتاد التغاضي عني وانه لم يعد يثر الضغائن التي يغذيها أعدائي في العمارة ضدي .

قال : « طلبك شخصان البارحة .

ـ من هما ؟

ـ قزم مع زوجته .

ـ كيف كانت زوجته ؟

ـ كانت اطول منه برأسين . امرأة حازمة جداً . صارمة . طلبت معلومات عن كل شيء» ثم خاطب كلارا : «لا سيما عنك. كانت تريد معرفة من تكونين وما اسمك .

ـ صاحت كلارا : يا الهي ، وماذا قلت لها ؟

ـ وماذا تريدين ان اقول لها ؟ وهل أعرف من يأتي إلى منزل السيد المعاون ؟ اخبرتها بأن فتاة جديدة تزوره في كل مساء .

ـ قلت : هذا ممتاز ، واخرجت قطعة نقدية من فئة ١٠ كورون من جيبي . تابع هكذا !

ـ قلت بعد ذلك لكلارا : لا تخشي شيئا ، لن تذهبي يوم الأحد إلى اي مكان ولن يعترض سبيلك أحد » .

جاء يوم الأحد وتلاه الاثنين والثلاثاء والأربعاء . لم يحدث شيء . وقلت لكلارا « هل رأيت » .

لكن يوم الخميس أقبل . كنت قد شرحت لطلابي ، في موعد المحاضره السري كالعادة ، كيف حرر اتباع المدرسة الوحشية الشباب بتضامنهم النبيل وحماستهم اللون من الانطباعية الوصفية ، حين جاءت السيدة ماري وفتحت الباب وقالت لي بصوت خافت : « زوجة زالتيروكي تسأل عنك ! ـ لكنك تعلمين بأنني لست هنا ، دليها على البرنامج » لكن السيدة ماري هزت رأسها : « قلت لها بأنك لست موجوداً لكنها القت نظرة على مكتبك وشاهدت سترتك الواقية من المطر معلقة على المشجب . وهي ما تزال تنتظرك في الممر » .

الوقوع في مأزق هو مجال لاختبار عبقريتي الخارقة . قلت لطالبي الأثير : « هل يمكنك أن تؤدي لي خدمة ؟ اذهب إلى مكتبي وارتدي سترتي الواقية من المطر واخرج من الكلية ! ستحاول امرأة التأكد من انك انا ، لكن مهمتك بالضبط هي إنكار ذلك بأي ثمن » .

خرج الطالب وعاد بعد ربع ساعة . اخبرني بأن المهمة انجـزت والطريق سالكة والسيدة انصرفت .

لقد ربحت هذه المـرة .

لكن يوم الجمعة جاء ؛ وعندما عادت كلارا من عملها في المساء كانت ترتعش .

في ذلك اليوم ، فتح السيد اللبق الذي يستقبل زبائنه في صـالة المؤسسة الانيقة فجاة الباب المفضي إلى داخل الورشة التي تعمل بهـا

كلارا ، وهي عاكفة على مكنة خياطة بصحبة خمسة عشرة عاملة أخرى ، وصاح : « هل تقطن إحداكن في ٥ ، شارع دي شاتو ؟ » .

أدركت كلارا في الحال أنها المقصودة ما دام ٥ ، شارع دي شاتو هو عنواني . لكنها بسبب الحرص الشديد الذي رسّخته في ذهنها بعناية، لم تخطيء ، لأنها تعلم بأنها تسكن عندي خفية وبأن ذلك لا يخص أحداً . فقال السيد اللبق وهو يلاحظ أن العاملات قد صمتن : « وهذا ما قلته لها بالضبط » ثم خرج . علمت كلارا بعد ذلك أن صوتاً أنثوياً صارماً أرغمه من خلال محادثة هاتفية على مراجعة عناوين مستخدماته وحاول جاهداً طوال ربع ساعة إقناعه بأن إحداهن تسكن ولا بد في ٥ — شارع دي شاتو .

خيم شبح السيد زاتيروكي على سقيفتنا البريئة .

قلت رافعاً وتيرة صوتي : « لكن كيف تسنى لها اكتشاف مكان عملك ؟ لا أحد هنا في العمارة يعلم شيئاً عنك ! »

أجل ، كنت بالفعل مقتنعاً بأن أحداً لا يعلم شيئاً عن حياتنا . كنت أعيش مثل هؤلاء الأشخاص الغريبي الأطوار الذين يعتقدون بأنهم يفلتون من نظرات التطفل بالتجائهم إلى الأسوار العالية ، لأنهم يتغافلون عن إدراك أمر ثانوي : وهو أن تلك الأسوار من الزجاج الشفاف .

كنت أرشو البواب لكي لا يبوح بأن كلارا تقيم عندي ، وأفرض على كلارا التكتم والتخفي الصارمين ، ورغم ذلك ، علم كل قاطني العمارة بوجودها . حسبها أنها تورطت ذات يوم في محادثة متهورة مع مستأجرة في الطابق الثاني فأصبح الناس يعرفون أين تعمل .

ودون أن ننتبه للأمر ، كنا مفضوحين منذ زمن طويل . أمر وحيد ما زال بعيداً عن منغصاتنا : اسم كلارا . وبفضل هذا السر الصغير كان

ما يزال بوسعنا الفرار من السيدة زاتيروكي التي تخوض الصراع بروح منهجية وعناد يجعل القشعريرة تسري في جسدي .

ادركت ان الأمر اصبح جدياً ، وان جواد مغامرتي قد اسرج جيداً هذه المرة .

٨

حصل ذلك إذاً يوم الجمعة . وحين عادت كلارا من عملها يوم السبت كانت أيضاً مرتعشة تماماً . وإليكم ما حدث :

جاءت السيدة زاتيروكي بصحبة زوجها إلى مؤسسة الألبسة الجاهزة التي هاتفتها بالأمس ، وطلبت من المدير الاذن بزيارة الورشة مع زوجها وتفحص وجوه العاملات الحاضرات . وطبعاً اندهش الرفيق من التماس كهذا ، لكن كان من المستحيل صرف النظر عن الأمر امام موقف السيدة زاتيروكي . تفوهت ببضعة كلمات محيرة تتعلق بموضوع القذف والشتم والحياة البائسة والقضية . كان السيد زاتيروكي يقف إلى جانبها صامتاً وعاقداً حاجبيه .

وهكذا دخلا إلى الورشة . رفعت الخياطات رؤوسهن بلامبالاة وتعرفت كلارا على الرجل القصير ، فشحب وجهها وتابعت الخياطة برزانة بالغة .

قال المدير بتهذيب ساخر للزوجين المذهولين : « ارجوكم » ادركت السيدة زاتيروكي بأن عليها الامساك بزمام المبادرة فقالت مشجعة زوجها : « حسناً ، انظر ! » رفع السيد زاتيروكي بصره الكئيب الذي جال الحجرة من اولها إلى آخرها . سألت السيدة زاتيروكي بصوت خافت : « هل هي هنا ؟ »

ورغم ارتدائه نظارتيه ، لم تكن لدى السيد زاتيروكي قوة الإبصار الكافية لكي يحتضن بنظرة هذا المكان الفسيح المضطرب ، المزدحم بكل

السقط وبالملابس المعلقة على قضبان طويلة أفقية، مع العاملات المشاغبات اللاتي لم يقتربن الوقوف ساكنات مقابل الباب ، بل كن يولين ظهورهن ويتحركن على كراسيهن ويرفعن أو يشحن وجوههن . عقد السيد زاتيروكي أخيراً العزم على التقدم في الورشة لكي يتفحصهن الواحدة تلو الاخرى .

حين الفت النسوة أنفسهن محط أنظار شخص غير جذاب ، اعتراهن شعور غامض بالخجل وعبّرن عن استيائهن بالمزاح والنحنحة . هتفت إحداهن وهي شابة جريئة : « يفتش في كل مكان عن العاهرة التي حَمَلَ منها ! » .

انصب ضحك النساء الشديد والرنان على الزوجين اللذين جابهاه بكبرياء غريب ، خجلين ومثابرين .

« صاحت الوقحة للسيدة زاتيروكي : ماما ، أنت تهملين ولدك ! لو كان لدي غلام في جماله لما تدخل فيما لا يعينيه .

ـ انظر » أخذت الزوجة تهمس لزوجها ، والرجل القصير المسكين ، بهيئة كئيبة وخجلة ، يطوف في الورشة خطوة خطوة ، كأنه يتقدم بين صفين من الضربات والإهانات ، لكن بمشية واثقة ودون أن يسهو عن تملي أي وجه .

راح المدير اثناء هذا المشهد يبتسم ابتسامة محايدة ، فهو يعرف عاملاته ويعلم انه لن يتغلب عليهن ، لذلك توجه بالسؤال الى السيد زايتروكي متظاهراً بعدم سماع ضجيجهن : « لكن كيف كانت تلك المرأة ؟ »

التفت السيد زاتيروكي نحو المدير وأجاب بصوت هاديء وخفيض « كانت جميلة ... جميلة جداً ... » .

بدات كلارا في هذه الأثناء تنكمش على نفسها في ركن الحجرة، وتتميز عن جميع هؤلاء النسوة الصاخبات بهيئتها القلقة ورأسها المطاطيء

ونشاطها المحموم . آه ، ما اردا دور الفتاة المتواضعة والمنزوية الذي تؤديه ! والسيد زاتيروكي بات الآن على مسافة خطوتين من آلتها ، ويوشك أن يتفرس فيها بين لحظة وأخرى !

لفت الرفيق المدير بأدب نظر السيد زاتيروكي : « أنت تتذكر أنها كانت جميلة لكن هذا لا يفيد شيئاً يوجد الكثير من النساء الجميلات ! كانت طويلة أم قصيرة ؟

ـ قال السيد زاتيروكي : طويلة .

ـ سمراء ام شقراء ؟

ـ اجاب السيد زاتيروكي بعد لحظة من التردد : شقراء » .

يمكن لهذا الجزء من قصتي أن يُضرب مثلاً على سطوة الجمال، فحين شاهد السيد زاتيروكي كلارا في منزلي ، فتنه جمالها لدرجة انه لم يراها في الحقيقة . كان الجمال يبسط امام عينيه نوعاً من الحاجز الكتوم . حاجز ضوئي يحجبها كالخمار .

لأن كلارا ليست طويلة ولا شقراء . وحده المعيار الداخلي للجمال كان يفسح المجال امام ناظري السيد زاتيروكي لإظهارها بهيئة الطول الجسدي . وكان النور المنبعث من الجمال يبدي شعرها بلون ذهبي .

حين وصل الرجل القصير اخيراً إلى زاوية الحجرة حيث كانت كلارا بمريولها الكستنائي تعكف على اجزاء تنورة بتململ ، لم يعرفها . لم يعرفها لأنه لم يكن قد شاهدها أبداً .

٩

بعد أن أتمت كلارا سرد حكايتها بأسلوب ركيك لكنه واضح ، قلت لها : « كما ترين ، نحن محظوظان ! » .

لكنهـا استنكرت وهي تنتحب : « كيف نكون محظوظين ؟ إذا لم يجداني اليوم ، فسيعثران علي في الغد .

ـ أود أن أعرف كيف .

ـ سيأتيان للبحث عني هنا ، في منزلك .

ـ لن أفتح الباب لأحد .

ـ وإذا ارسلا الشرطة ؟ وإذا أصرا وأرغماك على البوح بإسمي . لقد تكلّمت عن رفع شكوى تتهمني فيها باغتياب زوجها .

ـ أرجوكِ ! سأجعلها هزأة . لم يكن كل ذلك سوى مزحة .

ـ ليس هذا عصر المزاح ، فالناس في الوقت الحالي يأخذون كل شيء على محمل الجد ؛ سيدعيان بأنني أردت تلطيخ سمعته عمداً . كيف تريد أن يصدق الناس بأنه أراد إغراء امرأة عندما سيرونه ؟

ـ قلت : إنك محقة يا كلارا ، وسيلقى القبض عليك على الأرجح .

ـ أجابت كلارا : إنك تهذي بالحماقات . فأنت تعلم بأنه يجب علي أن أكون حذرة . ولا تنسى من هو والدي . إن مثولي أمـام محكمة جزائية ، حتى لمجرد التحقيق ، سيدرج في ملفي ، ولن أتخلص أبداً من الورشة . بهذا الخصوص ، أود لو أعرف أين هي وظيفة عارضة الأزياء التي وعدتني بها . ومن جهة أخرى ، لم أعد أرغب بقضاء الليل في منزلك ، هنا سأظل خائفة من أن يأتيان للبحث عني ، سأعود الى سيلاكو فيس » .

كانت هذه أول مناقشة في النهار .

وحدثت مناقشة اخرى بعد ظهر اليوم نفسه ، بعد اجتماع الهيئة التدريسية في الإدارة .

ادخلني مدير الإدارة ، وهو باحث ضليع في تاريخ الفن وسيد متسامح ، ادخلني الى مكتبه .

قال لي : « الدراسة التي نشرتها مؤخراً تزعزع كثيراً من مركزك ، وانت تعلم ذلك على ما اعتقد .

ـ اجبت : اجل ، أعلم ذلك .

ـ هنا في الكلية ، يشعر اكثر من استاذ انه المقصود ومدير الجامعة يحسب أنها هجوماً موجهاً ضد افكاره .

ـ قلت : وما الضير في ذلك ؟

ـ اجاب الأستاذ : لا شيء . لكن المعاونين معينون لمدة ثلاث سنوات. وما يعنيك في هذا الامر هو أن الفترة توشك تقريباً على الإنتهاء ، وسيمنح المنصب في مسابقة على الألقاب . من المعروف طبعاً ان المجلس يقلد المنصب لمرشح درّس سابقاً في الكلية ، لكن هل انت متاكد من انهم سيراعون هذا العرف في حالتك ؟ اخيراً ، ليس هذا ما كنتُ اريد محادثتك به . حتى الآن ما تزال توجد حجة لصالحك ، كنت تلقي محاضراتك بنزاهة وقد احبك الطلاب وتعلموا شيئاً مفيداً منك . لكن لم يعد بوسعك التعويل حتى على ذلك . اخبرني مدير الجامعة للتو بانك لم تلقِ محاضرات منذ ثلاثة اشهر بدون اي عذر . وقد يكون هذا سببا كافياً لفصلك فوراً » .

شرحتُ للأستاذ بأنني لم اهمل اية محاضرة ، وان كل ذلك لم يكن سوى مزحة واخبرته بتفاصيل قصة زاتيروكي وكلارا .

قال الاستاذ : « حسناً ، أصدقك . لكن تصديقي لك لا يغير شيئاً في القضية . يحكى الآن في كل الكلية بأنك لا تلقي محاضراتك . فقد اثير الموضوع سابقاً في لجنة المشروع ، وبالأمس في مجلس الكلية .

ـ لكن لماذا لم يكلموني عن هذا الأمر من قبل ؟

ـ عن ماذا تريد أن يكلموك؟ كل شيء واضح على ما يبدو . يراجعون الآن كل مسيرتك الماضية ويبحثون عن علاقة بين ماضيك وموقفك الحالي.

ـ ما السوء الذي يمكن أن يجدوه في ماضي ؟ انت نفسك تعلم مقدار حبي لعملي . لم أتخلف أبداً عن محاضرة . إنني مرتاح الضمير .

ـ قال الاستاذ : كل حياة إنسانية تزخر بالمعاني . فمهما يكن ماضي اي شخص منا ، يمكن أن يصبح سيرة رئيس دولة مثلما يمكن أن يصبح سيرة مجرم ، بحسب الطريقة التي نعرضه بها . لاحظ فقط بعمق حالتك الشخصية . قلما كان الناس يشاهدونك في الإجتماعات ، وحتى عندما كنت تأتي إليها ، كنت تظل صامتاً في الغالب . لم يكن بوسع أحد معرفة ما تفكر فيه على وجه الدقة . إنني اتذكر شخصياً انك كنت تلقي فجاة فكاهة تثير الشكوك عندما كنا نتداول في أمور جدية . كانت تلك الشكوك تنسى في الحال ، أما اليوم ، فإنها تتخذ فجاة مفهوماً محدداً عندما يتصيدونها من الماضي . أو تذكر اولئك النسوة اللواتي كنت تجعل السكرتيرة تجيبهن بأنك لست موجوداً ! أو لنأخذ دراستك الأخيرة ، فمن خلالها يمكن لأي شخص أن يؤكد بانها كتبت إنطلاقاً من وجهات نظر سياسية مشبوهة . هذه بالتأكيد ليست سوى وقائع متفرقة ؛ لكن يكفي تأملها على ضوء جريرتك الحالية لكي تشكل مجموعاً مترابطاً يعبر ببلاغة عن عقليتك وموقفك .

ـ هتفت : لكن اية جريرة ! سأوضح علناً الأمور كما حدثت ؛ وإذا كانت الكائنات الإنسانية كائنات إنسانيـــة فلن يسعها إلا ان تضحك من ذلك .

ــ كما تشاء . لكنك ستدرك أن الكائنات الإنسانية ليست كائنات إنسانية أو أنك لم تكن تعرف ما هي الكائنات الإنسانية . إنهم لن يضحكوا . إذا شرحت لهم الأمور كما حدثت ، فانهم لن يتأكدوا وحسب من أنك لم تؤد عملك كما هو مدون في البرنامج ، أي أنك لم تقم بما يمليه عليك واجبك ، بل وأنك فوق ذلك القيت محاضراتك خفية ، أي أنك قمت بما لا ينبغي عليك القيام به . سيتأكدون بالتالي من أنك أهنت الرجل الذي كان يطلب منك مساعدته . سيتأكدون من أنك تعيش حياة فاسقة ، وأن فتاة تسكن عندك دون تصريح ، وهذا ما سيولد انطباعاً معاكساً تماماً لدى رئاسة لجنة المشروع . سينشر الخبر بالتأكيد والله أعلم أية شائعات سيثير ، وسط الفرحة العارمة لأولئك الذين يكرهونك بسبب أفكارك لكنهم يؤثرون مهاجمتك بحجة اخرى » .

كنت اعلم أن الأستاذ لا يسعى إلى إخافتي ولا إلى خداعي ، لكنني كنت أجله كإنسان أصيل ولم أكن أود الانسياق وراء شكوكه . لقد امتطيت هذا الجواد بنفسي ؛ فليس بوسعي إذاً القبول بنزع اللجام من يدي والجموح بي إلى حيث يشاء . كنتُ مستعداً لخوض المعركة .

ولم يكن الجواد يرفض القتال . حين عدت إلى منزلي ، وجدتُ في صندوق البريد استدعاء لحضور الاجتماع القادم للجنة الحي .

١٠

كانت لجنة الحي تجتمع حول طاولة طويلة في حانوت قديم خصص لهذه الغاية . دلني رجل أسمر ، يرتدي نظارتين وذو ذقن مائلة ، على الكرسي . شكرته وجلست ثم افتتح الكلام . اخبرني بأن لجنة الحي كانت تراقبني منذ بعض الوقت ، وأنها تعلم جيداً بأنني اعيش حياة فاسقة ، وهذا ما يولد إنطباعاً سيئاً في محيطي ؛ وأن مستأجري العمارة التي أقطنها قد اشتكوا آنفاً من عدم قدرتهم على النوم طوال الليل بسبب الضوضاء في منزلي ؛ وأن كل هذا كان يكفي لتكوين فكرة صائبة عن

شخصيتي ؛ وانه فوق ذلك ، جاءت الرفيقة زاتيروكي ، وهي زوجة باحث علمي ، تلتمس مساعدة لجنة الحي : كان يترتب علي منذ أكثر من ستة اشهر تحرير تعليق على العمل العلمي لزوجها ولم أقم بذلك ، مع انني أعلم تماما أن مصير هذا العمل بين يدي .

« علقت مقاطعاً الرجل ذو الذقن المائلة : من الصعب نعت هـذا العمل بالعلمي ، لأنه انتحال لأفكار مجمعة !

ـ تدخلت عندئذ شقراء في الثلاثين من عمرها ، مرتدية ملابس امرأة من المجتمع الراقي ، بابتسامة مشرقة ملتصقة بوجهها (دوماً على ما يبدو) : هذا غريب أيها الرفيق . اسمح لي بأن اطرح عليك سؤالاً : ما هو اختصاصك ؟

ـ تاريخ الفن .

ـ وما هو اختصاص السيد زاتيروكي ؟

ـ لا اعلم شيئاً عنه . ربما يسعى للعمل في الميدان نفسه .

ـ هتفت الشقراء متوجهة إلى اعضاء اللجنة الآخرين : انتبهوا . أي باحث علمي في اختصاص الرفيق ليس رفيقاً بالنسبة له ، بل غريماً .

قال الرجل ذو الذقن المائلة : سأتابع . قالت لنا الرفيقة زاتيروكي بان زوجها جاء لمقابلتك في منزلك وصادف فيه امرأة . ويبدو أن تلك المرأة افترت عليه بعد ذلك امامك ، مدعية أن الرفيق زاتيروكي حاول مراودتها عن نفسها . يمكن للرفيقة زاتيروكي طبعاً الإدلاء ببراهين قاطعة يستنتج منها ان زوجها ليس مؤهلاً للإتيان بهكذا فعل . تريد معرفة اسم تلك المرأة التي افترت على زوجها ورفع شكوى أمام المحكمة الجزائية للجنة الوطنية ، لأن هذا الإفتراء قد يؤذي زوجها ويحرمه من موارد معيشـــته » .

حاولت جاهداً مرة اخرى بتر هذه المشكلة من بدايتها المضخمة فقلت : « اسمع أيها الرفيق ، لا طائل من كل هذا . الدراسة التي نحن بصددها ضعيفة جداً لدرجة أن احداً لن يقبل تزكيتها ، وباصرار يفوق إصراري . وإذا حصل سوء تفاهم بين تلك المرأة والسيد زاتيروكي ، فذلك رغم كل شيء ليس سبباً للدعوة إلى اجتماع .

ـ اجابني الرجل ذو الذقن المائلة : لحسن الحظ أيها الرفيق انك لست من يقرر مناسبة اجتماعاتنا وإذا أصبحت تدعي الآن أن دراسة الرفيق زاتيروكي لا قيمة لها ، فسنعتبر ذلك ثأراً . لقد قرأت علينا الرفيقة زاتيروكي الرسالة التي كتبتها إلى زوجها بعد اطلاعك على دراسته .

ـ نعم ، لكنني لم اذكر في الرسالة كلمة واحدة عن قيمة تلك الدراسة .

ـ هذا صحيح . لكنك كتبت إلى الرفيق زاتيروكي بانك تود مساعدته ؛ ويبدو واضحاً من قراءة الرسالة أنك كنت تستحسن دراسته . والآن تقول بأنها انتحال . لماذا لم تكتب له ذلك في الحال ؟ ولماذا لم تقل له ذلك بصراحة ؟

ـ قالت الشقراء : الرفيق رجل ذو وجهين » .

في تلك اللحظة تدخلت امرأة مسنة ذات تجعيدة في النقاش ؛ فلامست في الحال صلب المشكلة : « نود أن تقول لنا أيها الرفيق من هي تلك المرأة التي صادفها السيد زاتيروكي في منزلك ؟ » .

ادركت انه لم يكن بوسعي علنا تجريد هذه القضية من خطورتها المضحكة ، وانه لم يعد امامي إلا مخرج وحيد : خلط الأوراق وإبعاد كل هؤلاء الناس عن كلارا وتحويل انتباههم عنها ، كالحجلة التي تحول انتباه كلب الصيد عن عشها مفتدية فراخها بنفسها .

قلت : « هذا سؤال مزعج ، لأنني لا أتذكر اسم تلك المرأة .

ـ سألت المرأة ذات التجعيدة : كيف ؟ الا تتذكر اسم المرأة التي تعيش معها .

ـ قالت الشقراء : كانك تتعامل مع النساء بطريقة مثالية أيها الرفيق .

ـ قد يمكنني تذكره ، لكن يجب أن أفكر ، هل تعرفون في اي يوم جاء السيد زاتيروكي لمقابلتي ؟

ـ قال الرجل ذو الذقن المائلة وهو ينظر في أوراقه : كان ... لحظة من فضلك ، كان يوم ١٤ ، إذاً الأربعاء بعد الظهر .

ـ الأربعاء ١٤ ... انتظروا ... » احتضنتُ رأسي بين يدي وفكرت . « حسناً ، هذه المرة تذكرت . كانت هيلين » وكنتُ أتأكد من انهم يرهفون السمع لي .

« هيلين ... حسناً ، وايضاً ؟

ـ أيضاً ؟ للأسف لا أعرف شيئاً عنها . لم أرغب بطرح الأسئلة عليها . وإذا أردتم الصدق ، لستُ متأكداً من أنها كانت تدعى هيلين . كنتُ أناديها هيلين لأن زوجها بدا لي أشقراً مثل مينيلاس . تعرفتُ عليها مساء الثلاثاء في مرقص ونجحتُ في تبادل بضعة كلمات معها حين كان زوجها مينيلاس يشرب الكونياك في الحانة . جاءت لمقابلتي في اليوم التالي وامضت فترة ما بعد الظهيرة في منزلي . اضطررت لمغادرتها قبيل المساء بسبب اجتماع في الكلية لمدة ساعتين . عندما عدت ، كانت مشمئزة وقالت لي بأن سيداً جاء واغراها . ظنت أنني كنت متواطئاً معه ، فشعرت بالإهانة وباتت ترفض الإصغاء إلي . إذاً ، كما ترون ، لم يتح لي المجال لمعرفة اسمها الحقيقي .

ـ قالت الشقراء : أيها الرفيق ، سواء أكان ما تقوله صحيحاً او غير صحيح ، يبدو لي من المحال أن يستطيع رجل مثلك تعليم الشباب . كيف اتفق أن الحياة في بلدنا لم تدفعك إلا إلى الشراب وإغراء النساء ؟ ثق باننا سنرفع رأينا في هذه الموضوع إلى من يهمه الأمر .

ـ تدخلت المرأة ذات التجعيدة بدورها : لم يكلمنا البواب عن المدعوة هيلين ، لكنه قال لنا بأنك تستضيف منذ شهر فتاة شابة تعمل في مؤسسة للألبسة الجاهزة ودون حصولها على تصريح . لا تنسى أنك مستأجر أيها الرفيق ! هل تظن بأنك تستطيع إيواء أي شخص ؟ هل تحسب منزلك ماخوراً ؟ إذا كنت لا تريد إخبارنا باسمها ، ستعرف الشرطة كيف تحصل عليه » .

١١

كانت الأرض تميد تحت قدمي . بدات المس بنفسي جو السخط الذي كلمني عنه الاستاذ . وبالطبع لم يستدعني أحد بعد ، لكنني كنت أسمع تلميحات من هنا وهناك ، والسيدة ماري تكشف لي بتعاطف عن بعض الأمور التي تدور في المكتب الذي يأتي الأساتذة لتناول القهوة فيه وقلما كانوا يعيرون انتباهاً لأحاديثهم . كان على المجلس أن ينعقد خلال بضعة أيام وكان يتلقى من كل صوب الآراء والتقييمات ، فأتخيل أعضاء المجلس يقرؤون تقرير لجنة الحي ، تلك الوثيقة التي لااعرف عنها سوى شيء واحد : انها سرية وليس بوسعي إبداء أية ملاحظة بشأنها .

تمر لحظات في الحياة تتطلب الانسحاب . ولا بد فيها من التخلي عن المواقع الاقل أهمية للحفاظ على المواقع الحيوية . وهكذا كنت أحسب أن موقعي الاخير هو حبيبتي . أجل ، ففي تلك الايام القلقة بدأت أشعر فجأة أنني أحب خياطتي ، وأنني احبها حقاً .

واعدتها يومئذ امام إحدى الكنائس وليس في المنزل . وهل مايزال منزلا ؟ هل يمكن أيضا أن تكون حجرة ذات جدران زجاجية منزلا ؟ حجرة يرصدها المراقبون بمنظار ؟ حجرة يترتب عليكم أن تخفوا فيها المرأة التي تحبونها كالبضاعة المهربة ؟

منزلنا إذن ، لم يعد منزلنا ، كنا نبدو دخلاء اندسوا في أرض غريبة ويتحسبون دوماً من التعرض لهجوم ، وكنا نفقد رباطة جأشنا حين ينبعث وقع خطى في الممر ، ونتوقع في كل لحظة أن يطرق شخص ما الباب وبإلحاح . كانت كلارا قد عادت الى سيلا كوفيس ولم نعد نرغب بلقاء بعضنا حتى لبضعة لحظات في منزلنا ذاك الذي أصبح غريباً عنا . لذلك طلبت من صديقي الرسام إعارتي محترفه لقضاء أمسية . ويومئذ كانت المرة الأولى التي يسلمني فيها المفتاح .

التقينا إذا في الخفاء ، في حجرة فسيحة تحوي أريكة صغيرة وحيدة ولها نافذة كبيرة مائلة تتبدى منها براغ في انوار المساء ، واعترتني فجأة مشاعري القديمة عن عذوبة الحرية ، وسط مجموعة من اللوحات المسنودة على امتداد الجدران ، في هذه القذارة وهذه الفوضى اللامبالية لفنان . استويت على الأريكة وغرزت البذال في السدادة وفتحت زجاجة النبيذ . كنت أثرثر بحرية ومرح ، واستمتع بأمسية جميلة وليلة لطيفة كنا على وشك أن نمضيها .

لكن القلق الذي بارحني للتو ، ارخى بكل وطأته على كلارا .

ذكرت سابقاً بانها جاءت لتقيم في منزلي بدون ادنى تردد وحتى بمنتهى العفوية . لكننا الآن وقد الفينا انفسنا منذ بضع لحظات في محترف غريب ، باتت تشعر بتعكر مزاجها ، وبما هو أكثر من تعكر المزاج . فقالت : « هذا يهينني » .

ــ سألتها : ما الذي يهينك ؟

ـ استعارتك للشقة .

ـ ولماذا يهينك ذلك مادمت انا استعرت الشقة ؟

ـ لأن في هذا شيء مهين .

ـ لم يكن أمامنا خيار آخر .

ـ قالت : اعلم ، لكنني اصبح شبيهة بعاهرة في شقة مستعارة .

ـ يا إلهي ! لماذا تشبّهين نفسك بعاهرة لمجرد أننا في شقة مستعارة ؟ العاهرات يمارسن نشاطهن غالباً في منزل وليس في شقة مستعارة » .

كان من العبث محاولة الدحض المنطقي للسد المنيع من اللامعقول الذي جُبلت منه ، كما يقال ، الروح الأنثوية . ومنذ البداية كان نقاشنا ينذر بالشؤم .

أخبرتُ كلارا بما قاله لي الأستاذ ، وسردت عليها كل ما جرى في لجنة الحي وحاولت اقناعها بأننا سنتغلب في النهاية على كل العقبات .

ظلت كلارا صامته لبرهة ثم أكدت بأنني أتحمل مسؤولية كل شيء . « على كل حال ، هل ستستطيع إنقاذي من ورشة الألبسة الجاهزة ؟ » .

اجبتُ بأن عليها الصبر قليلاً في الوقت الحالي .

قالت كلارا : « لاحظ ، لم تكن سوى وعود وفي النهاية لن تفعل شيئا . والآن لن أتخلص منها حتى لو وافق شخص آخر على مساعدتي، لأن ملفي سيصبح مشيناً بسبب خطئك » .

أقسمت لكلارا بشرفي أنه لن ينوبها أي أذى من مشاحناتي مع السيد زاتيروكي .

قالت كلارا : « رغم كل ما حدث لم يتسن لي أن أعرف لماذا ترفض كتابة تعليق القراءة . لو أنك كتبته ، لركنوا إلى الهدوء في الحال .

ــ قلت : في كل الأحوال فات الأوان على ذلك يا كلارا . إذا كتبت تعليق القراءة الآن ، فسيدعون بأنني أستنكر هذا العمل بدافع الثأر ، وسيصبحون أكثر هيجاناً .

ــ ولماذا يجب أن تستنكر هذا العمل ؟ اعطِ رأياً موافقاً !

ــلا يمكنني أن افعل ذلك يا كلارا . تلك المقالة لا تطاق .

ــ وماذا بعد ذلك ؟ يلائمك تمثيل دور المدافعين عن الحقيقة ! الم يكن تزييفاً حين كتبت إلى ذلك الرجل بأنه ليس لآرائك أي وزن في مجلة الفكر التشكيلي ؟ الم تكذب حين قلت له بأنه حاول إغرائي ؟ الم تكذب حين تكلمت عن هيلين تلك ؟ إذا ، ما دمت كذبت كثيراً ، فماذا يمكن أن يحدث لك من الكذب مرة زيادة وإعطاء رأي موافق في مقالته ؟ هذه هي الوسيلة الوحيدة لإصلاح كل شيء .

ــ قلت : كما ترين يا كلارا ، انت تحسبين أن أكذوبة تنوب عن اخرى : لكنك مخطئة . يمكنني تلفيق أي شيء ، وخداع الناس ، وتدبير كل انواع الغش ، والقيام بكل أنواع المزحات ، فلا أشعر بنفسي كاذباً ، تلك الأكذوبات ، إن شئت أن تطلقي عليها هذا الاسم ، هي أنا ، على علاتي ؛ فبتلك الأكذوبات لا أتستر على شيء ، بتلك الأكذوبات أقول الحقيقة فعلاً . لكن هناك أمور لا يمكنني الكذب فيها . توجد أمور أعرفها في العمق ، وفهمت معناها ، وأحبها . لا أمزح بتلك الأمور . الكذب فيها سيحط من شأني ، ولا أحتمل ذلك ، فلا تطلبيه مني ، لأنني لن أقوم به . »

ولم نتفق .

لكنني كنتُ أحب كلارا حقاً وكنتُ عازماً على بذل ما بوسعي لكي لا تلومني على شيء . وفي اليوم التالي كتبتُ إلى السيدة زاتيروكي رسالة أخبرتها فيها بأنني سأنتظرها الساعة الثانية من نهار الغد في مكتبي .

- ١٢ -

ملتزمة بروحها المنهجية ، طرقت السيدة زاتيروكي مكتبي في الموعد المحدد تماماً . فتحتُ لها الباب ودعوتها للدخول .

ها أنذا أراها أخيراً . امرأة طويلة ، طويلة جداً ، ولها عينان زرقاوان كامدتان تجحظان من وجهها الناحل والمتطاول .

قلت لهـا « ارتاحي » فخلعت بحركات فظة معطفا طويلا لونـه كستنائي غامق ، مطابق لقوامها ومفصل بطريقة غريبة ، كان يذكرني بصورة المعاطف العسكرية القديمة .

لم أكن أرغب البدء بالهجوم ؛ بل أن يبادر الخصم لكشف أوراقه . عندمـا جلست السـيدة زاتيروكي ، حرضتها على افتتاح السجـال ببضع كلمات .

قالت بصوت خافت ودون أي أثر للعدوانية : « أنت تعلم لماذا كنت أبحث عنك . ما زال زوجي يكن لك الاحترام الفائق كإنسان وكعالم . كان كل شيء مرهونا بتعليق قراءتك . وأنت رفضت تحريره . لقد كرس زوجي ثلاث سنوات كاملة لهذا العمل . وعاش حياة متقشفة أكثر منك . كان معلماً وكان يجتاز ستين كيلو متراً يومياً لكي يعلم التلاميذ في الريف . وأنا التي أرغمته العام الفائت على أخذ إجازة حتى يتمكن من تكريس نفسه للعلم حصراً .

— سألت : ألا يعمل السيد زاتيروكي ؟

ـ لا .

ـ وكيف تؤمنان سبل معيشتكما ؟

ـ إنني مضطرة حاليا لأحصل على ما يكفينا لوحدي . العلم هو شغفه . ليتك تعلم كم اجتهد . ليتك تعلم كم كتب . ظل يقول بأن على العالم الحقيقي كتابة ثلاثمائة صفحة لكي لا يحتفظ منها إلا بحوالي الثلاثين . ثم صادف تلك المرأة . صدقني ، فأنا أعرف بأنه لم يرتكب بالتأكيد شيئاً من قبيل ما اتهمته به تلك المرأة ، وانها تثرثر بذلك أمامنا ! أعرف النساء ، لعلها تحبك ولعلك لم تكن تحبها . ربما كانت تريد إثارة غيرتك ، لكن يمكنك أن تصدقني ، ما كان زوجي ليجرؤ على ذلك أبداً ! » .

بينما كنت أصغي إلى السيدة زاتيروكي ، حدث لي فجأة أمر غريب : نسيت أنني بسبب هذه المرأة كنت على وشك أن أطرد من الكلية ، وأنه بسبب هذه المرأة اندس شبح بيني وبين كلارا ، وأنني بسببها قضيت أياماً في الغضب والقلق . باتت كل علاقة بينها وبين الحادثة التي كنا نمثل فيها سوية دوراً مؤسفاً ما تبدو لي الآن مبهمة وسقيمة وطارئة . وأدركت فجأة بأنني لم أكن سوى واهم حين تصورت بأننا نسرج حصان مغامراتنا بأنفسنا وأننا نوجه بأنفسنا سباقه ؛ وبأن تلك المغامرات ربما ليست مغامراتنا البتة ، بل إنها مفروضة علينا تقريباً من الخارج ، وبأنها لا تخصنا إطلاقاً ؛ وبأننا لسنا مسؤولين أبداً عن مجراها الغريب؛ وانها تجرفنا، وقد وجهت هي نفسها من مكان ما بقوى غامضة مجهولة .

من جهة أخرى ، حين كنت أنظر في عيني السيدة زاتيروكي ، كنت أحسب انه ليس بوسع عينيها إدراك معنى التصرفات ، وانهما لا تنظران مطلقاً ؛ وانهما لا تنفكان تعومان على سطح وجهها .

قلت بنبرة مواسية : لعلك محقة يا سيدة زايتروكي . ربما كذبت صديقتي . لكنك تعلمين حال الرجل الفيور ؛ فصدقتها وانهارت اعصابي . هذه أمور تحدث لكل الناس .

ـ قالت السيدة زاتيروكي متخلصة بوضوح من عبء ثقيل : أجل ، بالتأكيد أجل . ما دمت تعرف ذلك فهذا جيد . كنا نخشى أن تصدق تلك المرأة . كان بمقدورها أن تدمر حياة زوجي . لا أتكلم فقط عن الوهم الذي يستولي عليه من الناحية الأخلاقية . فهذا كان يمكن احتماله أيضاً . لكن زوجي ينتظر بفارغ الصبر تعليق قراءتك . أكدوا له في هيئة تحرير تلك المجلة أن الأمر متوقف عليك وحدك . وزوجي واثق من أن مقالته لو نشرت ، لتم أخيراً قبوله في البحث العلمي . الآن وقد اتضح كل شيء ، هل ستحرر ذلك التعليق ؟ وهل بوسعك كتابته بسرعة؟

جاءت أخيراً لحظة ثأري وتسكين غضبي ، لكنني لم أعد أشعر في تلك اللحظة بأي غضب ، وما قلته للسيدة زايتروكي ، قلته لأنه لم يعد بوسعي التهرب : « سيدة زاتيروكي ، توجد صعوبة بخصوص التعليق . سأشرح لك بصراحة كيف حصل كل هذا . إنني ابغض مواجهة اي شخص بأمور مزعجة . وهذه نقطة ضعفي . فعلت كل ما بوسعي لكي لا اقابل السيد زاتيروكي وكنت أعتقد أنه سيفهم لماذا أتجنبه . الحقيقة أن دراسته ضعيفة وليس لها أية قيمة علمية . هل تصدقينني ؟

ـ قالت السيدة زاتيروكي : هذا امر يصعب علي تصديقه . لا ، لا أصدقك .

ـ أولا هذا العمل ليس مبتكراً على الاطلاق . هل تفهمين ؟ على العالم أن يبتكر شيئاً جديداً ؛ ولا يحق له أن ينسخ أشياء معروفة سابقاً ، أشياء كتبها آخرون .

ـ بالطبع لم ينسخ زوجي تلك المقالة .

– يا سيدة زاتيروكي ، طبعاً قرأتيها ... » وهممت أن أتابـع ، لكن السيدة زاتيروكي قاطعتني .

« لا ، لم أقرأها » .

فوجئت : « في هذه الحالة ، اقرئيها .

– قالت السيدة زاتيروكي : نظري ضعيف . لم أقرأ سطراً واحداً منذ خمس سنوات ، لكنني لست بحاجة للقراءة كي أعرف هل زوجي شريف أم لا . هذه أمور يحسبها المرء ويستغني عن القراءة لأجلها ،أعرف زوجي مثلما تعرف أم طفلها ، أعرف كل شيء عنه . وأعلم أن كل ما يقوم به شريف دوماً » .

اضطررتُ لتحمل الأسوأ . قرأتُ على السيدة زاتيروكي بعض المقاطع من مقالة زوجها والمقاطع المناظرة للمؤلفين المختلفين الذين اقتبس منهم السيد زاتيروكي الأفكار ، وطبعاً لم يكن المقصود انتحال متعمد بل الأصح طاعـة عمياء لمؤثرات تلهم السيد زاتيروكي الاحترام الصادق والمفرط . مع ذلك كان واضحاً أن أية مجلة علمية جادة لا يمكنها نشـر ذلك النص .

لا أدري بأية طريقة كانت السيدة زاتيروكي تهتم بشروحاتي ، وبأية طريقة تتابعها وتفهمها . كانت جالسة باستكانة على كرسيها ، مذعنـة وخاضعة مثل جندي يعلم بأنَّ عليه التشبث بموقعه . تكلمتُ ما ينوف على النصف ساعة . ثم نهضت عن كرسيها ، وحدجتني بعيونها الكامدة ورجتني بصوت بريء أن أسامحها . لكنني كنت أعلم أنها لم تفقد الثقـة بزوجها . كانت توجـه اللوم إلى شخص ما ، ربما إلى نفسها ، لكي لا تواجه حججي التي كانت تبـدو لها غامضة وغـير مفهومة . ارتدت معطفها العسكري وأدركت أن تلك المرأة كانت جندياً ، جندياً جسداً وروحاً ، جندياً حزينـاً ووفيـاً ، جندياً متعبـاً من غزوة طويلـة ، جندياً مهزوماً لكن دون عار .

١٣

قلت لكلارا في تافيرن دالماس بعد أن اخبرتها بحديثي مع السيدة زاتيروكي : « والآن ، لم يعد يوجد شيء يدعوك للخوف » .

« اجابت كلارا بثقة فاجأتني : لا أرى ما كان يدعوني للخوف .

ــ كيف هذا ؟ فلولاك ، لما قابلت السيدة زاتيروكي أبداً !

ــ أحسنت صنعاً بمقابلتها لانك سببت الكثير من الأذى لهــؤلاء الناس . قال الدكتور كالوزيك بأن مــن العسير على رجــل عاقــل أن يتفهــم ذلك .

ــ متى رأيت كالوزيك ؟

ــ قالت كلارا : رأيته .

ــ واخبرته بكل شيء ؟

ــ وبعد ؟ لعل ذلك سر ؟ الآن أعرف تماماً من أنت .

ــ آه ، من ؟

ــ هل تود أن أقول لك ذلك ؟

ــ إذا سمحت .

ــ إنك متعجرف تافه .

ــ هل قال لك كالوزيك هذا ؟

ـ لِم كالوزيك ؟ هل تظن بأنني لا أستطيع اكتشاف ذلك لوحدي؟ هل تظنني غير قادرة على إدراك لعبتك ؟ تؤثر خداع الناس . وعدت السيد زاتيروكي بتعليق القراءة . .

ـ لم أعده أبداً بتعليق القراءة . . .

ـ وأنا ، وعدتني بوظيفة . استخدمتني ضد السيد زاتيروكي واستخدمت السيد زاتيروكي ضدي . لكن لعلمك ، سأحصل على تلك الوظيفة رغم كل شيء .

ـ بفضل كالوزيك ؟ » كنت أرغم نفسي على أن أبدو ساخراً .

« بالتأكيد ليس بفضلك ! فأنت مفضوح في كل مكان ، ولا يمكنك أن تعلم إلى أي مدى .

ـ وأنت ، هل تعلمين إلى أي مدى ؟

ـ أجل ، لن يجدد عقد عملك وسيمكنك اعتبار نفسك محظوظاً إن قبلوك كمستخدم في مخزن ريفي . لكن عليك أن تفهم بأن كل ذلك حدث بسبب خطئك . إذا أمكنني أن أقدم لك نصيحة من أجل المستقبل ، الأجدر بك أن تصبح صادقاً وأن لا تكذب ، لأنه ليس بوسع امرأة أن تكن الاحترام لرجل يكذب » .

نهضت وصافحتني (واضح أنها المرة الأخيرة) ، ثم استدارت وخرجت .

كنت بحاجة لبرهة كي أفهم أن حكايتي (رغم الصمت الجليدي الذي كان يحدق بي) ليست من النوع التراجيدي ، بل الأصح الهزلي .

وهذا ما جعلني أشعر بنوع من السلوى .



تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية

مارتـــان :

مارتان قادر على أشياء لا أقدر عليها . انه يتعرض لأية امرأة في أي مكان . ولا بد لي من الاعتراف بأنني استفدت كثيراً من موهبته منذ أن تعرفت عليه (وقد حصل ذلك منذ زمن طويل) ، لأنني أهوى النساء بقدر ما يهواهن لكنني لا أملك جرأته المتهورة . وبالمقابل ، ارتكب مارتان خطأ بتحويل التعرض إلى ممارسة براعة أصبحت غاية في حد ذاتها . بحيث صار يُشَبِّهُ نفسه غالباً ، وإحساس بشيء من المرارة يعتريه ، بمهاجم شهم يرسل الكرات الأكيدة لزميله الذي يحرز أهدافاً سهلة ويحصد المجد بمجهود متواضع .

كنت أنتظره عصر يوم الاثنين بعد خروجي من عملي في مقهى ساحة سان ـ فانسيسلا ، وقد استغرقت في قراءة كتاب ألماني سميك يتناول الثقافة الاتروربية(*) القديمة . احتاجت مكتبة الجامعة إلى عدة أشهر لكي تزودني بهذا المؤلف الذي استعارته لأجلي من ألمانيا ، وبما أنني كنت قد تلقيته للتو يومئذ ، فقد حملته معي بحرص بالغ وكنت مسروراً في قرارة نفسي لأن مارتان تأخر ، مما أتاح لي تصفح الكتاب المشوق على طاولة المقهى .

لا يمكنني التفكير في تلك الثقافات القديمة الغابرة دون الاحساس بنوع من الحنين . إحساس بالحنين وكذلك بالحسد عنـد التفكـير بالانسياب العذب لتاريخ ذلك الزمن . فالثقافة المصرية القديمة تشغل عدة آلاف من السنين ، واستمرت العصور اليونانية القديمة ما يقارب

(*) الاتروري : من اتروريا التي كانت تقع قديماً غربي ايطاليا .

الألف عام . ومن هذه الناحية ، تشبه الحياة الإنسانية التاريخ : تتوارى في البداية بهدوء رتيب ، ثم تتسارع شيئاً فشيئاً وأكثر فأكثر . لقد تجاوز مارتان الأربعين منذ شهرين .

المغامرة تبدأ :

هو الذي قطع تأملي . ظهر فجأة على الباب المزجج لمشرب الجعة ، وتقدم نحوي وهو يوجه تكشيرات وايماءات معبرة إلى فتاة شابة جالسة إلى جانب طاولة وأمامها فنجان قهوة . جلس بقربي دون أن تبارحها عيناه وسألني : « ما قولك فيها ؟ » .

شعرت بالخجل . في الحقيقة ، كنت مستغرقاً بعمق في كتابي بحيث لم يتسن لي ملاحظة الفتاة الشابة ، وكان لا بد من الاعتراف بأنها جميلة . في اللحظة نفسها ، عدلت جلستها ونادت النادل ذي ربطة العنق السوداء : كانت تريد دفع الحساب .

أمرني مارتان : « ادفع انت أيضاً ! » .

كنا نعتقد أننا سنضطر للركض خلفها في الشارع ، لكن الحظ واتانا بتوقفها أيضاً في حجرة الملابس . كانت قد أودعت فيها حقيبة ، فذهبت المستخدمة للبحث في مكان ما قبل أن تضعها أمامها على المنضدة . ثم دفعت الفتاة بضع قطع نقدية من فئة العشر سنتيمات إلى المستخدمة وحينئذ ، انتزع مارتان كتابي الألماني السميك من يدي .

قال بمنتهى العفوية : « لنضعه هنا ! وأودع الكتاب بعناية في حقيبة الآنسة التي بدت مندهشة لكنها لا تدري ماذا تقول .

— ليس من السهل الاحتفاظ بهذا الشيء في اليد » قال مارتان ، وعاتبني على سوء سلوكي ، لأن الفتاة كانت تستعد لحمل الحقيبة بنفسها .

كانت ممرضة في مشفى ريفي . وقد مرت مروراً عابراً في براغ وكان يترتب عليها الإسراع لتستقل حافلتها . حسبنا اننا رافقناها إلى موقف الترام حتى نعلم المطلوب بشأنها ونتفق على المجيء إلى ب . . . السبت التالي ، لكي نلتقي تلك الآنسة الفاتنة التي لا بد أن لديها زميلة جميلة بالتأكيد ، وهو ما لم يغفل مارتان التنويه عنه بفصاحة .

كان الترام يقترب ببطء . ناولتُ الحقيبة إلى الفتاة التي تظاهرت بسحب الكتاب منها ، لكن مارتان منعها عن ذلك بحركة نبيلة ، فلتعده لنا يوم السبت التالي وتتصفحه من الآن حتى ذلك الحين . . . كانت تضحك ضحكة مرتبكة والترام يذهب بها ونحن نلوح لها .

لم يكن لي حيلة في الأمر . فالكتاب الذي انتظرته طويلاً أصبح فجأة بعيداً على نحو خطر ، وحين تأملت الأمور بروية ، وجدت ذلك مزعجاً ، لكنني لا أدري اية حماقة كانت تحملني بخفة على جناحيها المبسوطتين . أخذ مارتان ، دون أن يضيع دقيقة واحدة ، يفتش عن أعذار لزوجته من اجل بعد ظهر يوم السبت والليل الممتد من السبت إلى الأحد (لأن الأمر على هذا المنوال : مارتان متزوج ، لديه زوجة شابة والأسوأ من ذلك أنه يحبها ، والأسوأ أيضاً أنها يخاف منها ، والأسوأ أكثر أيضاً انه يخاف عليهما) .

استطلاع موفق :

استعرتُ إذاً سيارة فيات جميلة من أجل حملتنا ، وجئت يوم السبت في الساعة الثانية لكي آخذ مارتان من أمام منزله ، كان ينتظرني فانطلقنا في الحال . كان شهر تموز ، والطقس في غاية الحرارة .

كنا نود الوصول إلى ب . . . في أسرع وقت ممكن ، لكننا تين لمحنا في القرى شابتين بلباس السباحة وشعرهما مبلل ، أوقفتُ السيارة . لم تكن البركة بعيدة خلف المنازل . كنتُ بحاجة للتبرد . وقد وافق مارتان .

ارتدينا سراويل السباحـة وغطسنا . وصلت بسرعة إلى الضفة المقابلة ، أما مارتان فاكتفى بالتبلل والتحمحمة ثم خرج . حين عدت من جديد الى الضفة بعد أن اجتزت البركة في الاتجـاه المعاكس ، ألفيته مستغرقاً في تأمل عميق . كانت مجموعة من الأطفال تتعارك بصخب على الجرف ، وصبية القرية يلعبون الكرة أبعد منهم بقليل ، أما مارتان فيحافظ على عينيه مسمرتين على جسد فتاة شابة واقفة على بعد حوالي خمسة عشر متراً منا وتولي ظهرها إلينا . كانت تتمعن ماء البركة في سكون شبه تام .

« قال مارتان : انظر .

ـ انني أنظـر .

ـ وما قولك فيها ؟

ـ ماذا تريدني أن أقول فيها ؟

ـ ألا تعرف ما يجب أن تقوله فيها ؟

ـ لا بد من التريث حتى تلتفت .

ـ لسنا بحاجة للتريث حتى تلتفت . ما تبديه من هـذه الجهة يكفيني تماماً .

ـ موافق ! لكن ليس لدينا وقت .

ـ رد مارتان بسرعة : الاستطلاع ، الاستطلاع ! » وتوجه نحو صبي يرتدي سروال رياضة . « من فضلك أيها الغلام ، ألا تعرف ماذا تدعى تلك الفتاة ؟ » وأشار إلى الفتاة التي ما تزال محافظة على وضعيتها نفسها ، مستسلمة لبلادة غريبة .

« تليـك ؟

ـ أجـل ، تلـك .

ـ قال الصبي : ليست من هنا » .

عندئذ خاطب مارتان صبية في الثانية عشر مـن عمرها كانـت تتشمس بقربنا .

ـ « يا صغيرتي ، ألا تعرفين من هي تلك الفتاة ، تلك الواقفة عى طـرف الماء ؟ » .

نهضت الصغيرة بانقياد : « تلك ، هناك ؟

ـ نعـم

ـ إنها ماري .

ـ ماري ماذا ؟

ـ ماري بانيك ، من بوزدراني ... » .

كانت الفتاة ما تزال واقفة على طرف البركة وظهرها متجه نحونا . ثم بدأت تنحني لالتقاط قبعتها ، وعندما انتصبت ووضعتها على شعرها كان مارتان قد أصبح بجانبي : « إنها تدعى ماري بانيك ، من بوزدراني يمكننا الإنطلاق » .

كان في منتهى الهدوء والوداعة ولم يكن يفكر ظاهرياً إلا بمواصلة الرحلة .

شيء من النظـرية :

ذلك ما يسميه مارتان الاستطلاع . استخلص من تجربته الكبيرة أن الأصعب ، بالنسـبة لأي شخص لديه في هذا الميدان طلبات عددية

كثيرة ؛ ليس إغراء فتاة ، بل التعرف على عدد كاف من الفتيات اللواتي لم يتعرضن للاغراء بعد .

يزعم إذاً بأنه يترتب علينا دائماً ، في كل مكان وفي كل ظرف ، البدء باستطلاع منظم للنساء ، أو بعبارة اخرى ، أن ندون في مفكراتنا أو في ذاكرتنا أسماء النساء اللواتي أعجبتنا واللواتي قد نستطيع يوماً التعرض لهن .

التعرض هو درجة أعلى من النشاط ويعني أن يتصل المرء مع هذه أو تلك ، ويتعرف عليها ويمهد للوصول اليها . أولئك الذين يؤثرون الإلتفات إلى الماضي بتبجح ، يتمسكون بعدد النساء المغزوات ، أما أولئك الذين يتطلعون إلى الامام ، نحو المستقبل ، فعليهم في البداية تهيئة عدد كاف من النساء المستطلعات والمتعرض لهن .

لم يعد يوجد بعد التعرض إلا درجة واحدة وأخيرة من النشاط ، ويهمني أن أشير إرضاءً لمارتان إلى أن أولئك الذين لا يطمحون إلا إلى تلك الدرجة النهائية هم الرجال البائسون والدونيون الذين يشبهون لاعبي كرة القدم الريفيين الذين نشاهدهم ينقضون برؤوس مطرقة نحو مرمى الخصم ، متناسين انه لا يكفي لتسجيل هدف (وعدة أهداف) الرغبة الجامحة بقذف الكرة ، بل لا بد في البداية من اللعب بإتقان وتنظيم على أرض الملعب .

« سألت مارتان حين كنا نتابع طريقنا من جديد : هل تعتقد انك ستحظى يوماً بفرصة الذهاب لرؤيتها في بوزدراني ؟

ــ أجاب : لا يمكن التنبؤ بذلك أبداً .

ــ علقت بدوري : على كل حال، فاتحة حسنة للنهار بالنسبة لنا»

اللعبة والضرورة .

وصلنا الى مشفى ب ... بمزاج مبتهج . كانت الساعة الثالثة والنصف تقريباً . هاتفنا ممرضتنا من حجرة البواب . نزلت بعد قليل بقبعة الممرضة والرداء الأبيض واكتشفت أنها احمرت خجلاً ، وهو ما بدا لي بشيراً ساراً .

بدأ مارتان الكلام بسرعة وأخبرتنا الفتاة بأن نوبتها تنتهي في الساعة السابعة . رجتنا انتظارها في تلك الساعة أمام المشفى .

« سأل مارتان : هل كلمت زميلتك ؟ فأومأت الفتاة إيجاباً .

ــ أجل .. سنكون اثنتين .

ــ قال مارتان : ممتاز ، لكن لا يمكننا أن نفاجيء صديقي بالأمر الواقـع .

ــ قالت الفتاة : حسناً ، يمكن الذهاب لرؤيتها . إنها تعمـل في قسم الجراحة » .

اجتزنا بتمهل فناء المشفى وسألت بخجل : « أما يزال كتابي معك؟ »

ردت الممرضة إيجاباً بإيماءة من رأسها : ما تزال تحتفظ به ، وهنا في المشفى . شعرت بارتياح عبء ثقيل عن كاهلي وألححت عليها كي تذهب أولاً لإحضار الكتاب .

وطبعاً رأى مارتان أنه لا يليق أن أفضل بشكل علني كتاباً على المرأة التي أوشكت على التعرف إليها ، ولكن ذلك كان رغماً عني . لا بد لي من الاعتراف بأنني تألمت كثيراً خلال الأيام التي وجد فيها كتاب الثقافـة الأتروورية بعيداً عن متناول يدي . وقد احتجت إلى جهد جبار من الإرادة لكي أحتمل ذلك دون تذمر ، لأنني لم أكن أريد في حال من الأحوال إفساد اللعبة . هذه القيمة التي تعلمت احترامها منذ فترة صباي ويمكنني أن أخضع لها في كل مصالحي ورغباتي الشخصية .

بينما كنت أستعيد كتابي بشغف ، كان مارتان يتابع جداله مع المرضة وقد أوغل بعيداً لدرجة أن الفتاة وعدته باستعارة شاليه زميل لها قرب بركة أوتي لقضاء الأمسية . كنا نحن الثلاثة في غاية الرضى فتوجهنا نحو البناء الصغير الأخضر الذي يحوي قسم الجراحة .

في تلك اللحظة ، كانت ممرضة تجتاز الفناء بصحبة طبيب في الاتجـاه المعاكس . كان ذلك الطبيب طويلاً ناحـلاً ومثيراً للسخرية بأذنيه المشنفتين ، وهو ما كان يسحرني . لكزتني ممرضتنا بمرفقها فأخذت أضحك . عندما ابتعدا ، التفت مارتان نحوي : « إنك محظوظ بها يا عزيزي . فأنت لا تستحق فتاة بمثل هذا البهاء ! »

لم أتجرأ على الاجابة بأنني لم انظر إلا إلى الطويل الناحل ولذلك ابديت رأياً متملقاً . ومن جهة أخرى ، لم يكن هذا بتاتاً علامة رياء من جانبي . فأنا أثق بذوق مارتان أكثر من ذوقي الشخصي ، لأنني اعلم أن ذوقه مدعوم بالاهتمام أكثر بكثير من اهتمامي . أحبُّ في كل امر النظام والموضوعية ، بما في ذلك أمور الحب ، وأُقدر الخبير أكثر من الهاوي .

لعل البعض سيتصور أنه من الرياء ، من جانب الرجل المطلّق الذي أكونه والذي يروي بدقة إحدى مغامراته (غير الاستثنائية حتماً) ، أن ينعت نفسه بالهاوي . ومع ذلك : أنا هاوٍ . ويمكن القول أنني أمثل ما يعيشه مارتان ، أخال أحياناً أن كل حياتي المتعددة الزوجات ليست إلا تقليداً للرجال الآخرين ؛ ولا أنكر شعوري ببعض المتعة في هذا التقليد . لكن ليس بوسعي أن أتمالك نفسي عن التفكير بأنه يوجد في هذه المتعة شيء ما قدري تماماً واعتباطي ويمكن العدول عنه ، يَسِمُ زيارة معرض اللوحات أو اكتشاف مشاهد طبيعيـة خارقة ولا يخضع إطلاقاً لتلك الضرورة الحتمية التي أتكهن بها وراء الحياة الماجنة لمارتان . ما أحترمه في مارتان هو تلك الضرورة الحتمية . فحين يتفوه بحكم على امرأة ، أحسب أن الطبيعة مشخصة والضرورة نفسها تنطقان بفمه .

شعاع المحرك :

حين خرجنا من المشفى ، نبهني مارتان بشدة إلى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لنا . ثم أضاف : « لا بد من العمل بسرعة هذا المساء . أريد العودة في الساعة التاسعة » .

أذهلني ذلك : « في التاسعة ؟ لكن هذا يعني أن علينا المغادرة من هنا في الساعة الثامنة ! كنا في غنى عن المجيء في مثل هذه الحالة ! كنت أظن أن الليل بطوله ما زال أمامنا !

— ولماذا تريد أن نضيع وقتنا ؟

— لا غنى لمجيئنا إلى هنا من أجل ساعة . ماذا تريد أن تفعل من الساعة السابعة حتى الثامنة ؟

— كل شيء . كما سمعت ، وجدت شاليه . في هذه الحالة ، ستسير الأمور بيسر . كل شيء متوقف عليك ، سيترتب عليك أن تبدي مقداراً كافياً من التصميم .

— وهل تسمح باخباري لماذا عليك العودة في الساعة التاسعة ؟

— وعدتُ جورجيت بذلك . نحن نلعب الورق مساء كل سبت قبل خلودنا إلى النوم .

— تذمّرتُ : يا إلهي !

— ما زالت جورجيت متكدرة من عملها في الأمس وتريدني أن أحرمها من هذه الفرحة المتواضعة يوم السبت ؟ أنت تعلم بأنها أفضل امرأة تعرفتُ عليها في حياتي » .

واستدرك : « بالاضافة لذلك ، سيسرك أن يظل الليل بطوله أمامك في بـراغ » .

أدركتُ أن من العبث النقاش . لا يمكن لشيء أن يخفف من المخاوف التي يشعر بها مارتان في سبيل تهدئة خاطر زوجته ، ولا يمكن لشيء أن يزعزع ثقته بالإمكانات اللانهائية الماجنة في كل ساعة وكل دقيقة .

« قال لي مارتان : تعال . ما يزال أمامنا ثلاث ساعات من الآن حتى الساعة السابعة . لن نتعطل ! »

الخديعة :

دلفنا إلى ممر حديقة عامة واسع يستخدمها سكان المدينة للتنزه . تفحصنا العديد من أزواج الفتيات اللواتي يعبرن بقربنا أو يجلسن على المقاعد ، لكننا كنا مستائين من صفاتهن .

تعرَّض مارتان رغم ذلك لاثنتين منهن وافتتح معهن حديثاً ، وواعدهن ، لكنني كنت أعلم أن ذلك ليس جدياً . فهذا ما يسميه التعرض التدريبي ، وهو رياضة يكرس نفسه لها مخافة أن يفقدمهارته .

خرجنا من الحديقة العامة منزعجين وتابعنا سيرنا في الشوارع المستغرقة في سأم وفراغ المدينة الريفية الصغيرة .

« قلتُ لمارتان : تعال نشرب شيئا . إنني عطشان » .

عثرنا على بناء تعلوه لوحة منقوشة « مقهى » . دخلناه ، لكنه لم يكن إلا مقهى خدمة ذاتية ، عبارة عن صالة مبلطة ، باردة وقلية الحفاوة ، فتوجهنا نحو منضدة البائعة لكي نشتري من سيدة متجهمة شراباً ، وضعناه بعد ذلك على طاولة ملطخة بالصلصة ، كان لا بد لها أن تحثنا على الخروج بأقصى سرعة .

قال مارتان : لا تعر أهتماماً لذلك ، فللقذارة وظيفة إيجابيـة في عالمنا . لا أحد يريد التريث مطلقاً ، فحالما يلفي نفســه في مكان ما ،

يتعجل الخروج منه ، وهذا ما يهب الحياة إيقاعاً مستحباً . لكننا لن ننساق لذلك . يمكننا أن نقص على بعضنا أموراً كثيرة ، محميين بواسطة القذارة الهادئة لهذه الخمارة » شرب الليمون وسألني : « هل تعرضت آنفاً لطالبتك في الطب ؟

— قلت : أجل بالتأكيد .

— وكيف هي ؟ صفها لي ؟ »

وصفت له طالبة الطب ، دون أن يصعب عليّ ذلك ، مع أنه لا توجد طالبة طب . أجل ، مع أن هذا يعطي عني صورة سلبية بدون شك ، لكن الأمر حصل هكذا : اختلقتها .

يمكنكم أن تثقوا بكلامي : لم أتصرف بدوافع شريرة لكي أتباهى أمام مارتان أو أخدعه . اختلقت طالبة الطب تلك لسبب بسيط هو أنني لم أعد أستطيع مقاومة إلحاح مارتان .

مارتان شخص لجوج جداً فيما يخص نشاطي . فهو واثق من أنني أقابل كل يوم نساء جديدات . يراني بخلاف ما أنا عليه ولو أنني قلت له بصراحة أنني لم أضاجع أو حتى ألمس امرأة جديدة طوال الأسبوع ، لاعتبرني منافقاً .

إذاً كنت قد ألفيت نفسي قبل بضعة أيام مكرهاً على أن أقص عليه بأنني استطلعت طالبة طب . بدا راضياً وشجعني على المضي للتعرض لها . تأكد يومئذ من تقدمي .

« وهي من صنف من ؟ إنها من صنف ... » .

أغمض عينيه باحثاً في الغبش عن نقطة مقارنة ؛ ثم تذكر صديقة مشتركة : « ... إنها من صنف سيلفي ؟

— قلت : إنها أفضل بكثير » .

دهش مارتان : « أنت تمزح ...

— إنها من صنف زوجتك جورجيت » .

المعيار الأول بالنسبة لمارتان هو زوجته . كان مارتان في غاية الرضى من تقريري واسترسل في حلم يقظة .

تعرُض موفق :

ثم دخلت فتاة ترتدي بنطالاً مخملياً إلى الصالة . تقدمت نحو منضدة البائعة وانتظرت شرابها . ثم توقفت عند طاولة مجاورة لطاولتنا، وشربت دون أن تجلس .

التفت مارتان نحوها وقال : « يا آنسة ، نحن لسنا من هنا ونود أن نسألك عن أمر » .

ابتسمت الفتاة . كانت في غاية الجمال .

« إننا نختنق ولا ندري ماذا نفعل ...

— اذهبا للاستحمام !

— وهو كذلك . لكنا لا نعرف مكان الحمام في هذه المدينة .

— لا يوجد حمام .

— كيف هذا ؟

— يوجد حوض سباحة لكنه فارغ منذ شهر .

— والنهر ؟

— إنه ينظف الآن .

ــ إذاً ، أين يمكن الاستحمام ؟

ــ لا يوجد إلا بركة أوتي ، لكنها تبعد حوالي ٧ كيلو مترات .

ــ لا أهمية لذلك ، معنا سيارة ويكفي أن تقودينا .

ــ قلتُ : ستكونين ملاحتنا .

ــ قال مارتان : أو الأصح ، دليلتنا .

ــ قلت : نجمتنا » .

وافقت الفتاة في النهاية على مرافقتنا بعد تردد ؛ لكن كان ما يزال أمامها جولة ، وكانت مضطرة لإحضار مايو السباحة ؛ لذلك كنا سنلتقيها في المكان نفسه بعد ساعة بالضبط .

كنا مسرورين . أخذنا ننظر إليها تبتعد ، وهي تهز وركيها بلطف وتؤرجح قرطيها السوداوين .

« قال مارتان : كما ترى ، الحياة قصيرة ويجب الاستفادة من كل دقيقــة » .

مديح الصداقة :

عدنا إلى الحديقة العامة لكي نعاين أزواج الفتيات الجالسات على المقاعد ، إلا أنه حين تكون إحداهما جميلة ، وهو ما كان يصادف أحياناً ، لا تكون جارتها كذلك مطلقاً .

« قلتُ لمارتان : إنه قانون الطبيعة الغريب . المرأة القبيحة تأمل بالاستفادة من نضارة صديقتها الرائعة الجمال ، وهذه تأمل أن تتوهج ببريق خلفيته القبح ؛ ينجم عن ذلك بالنسبة لنا أن صداقتنا خضعت

لاختبارات متتالية . وإنني فخور جداً لأننا لم نترك مجالا للصدفة أو المنافسة للتحكم فينا . ما يزال الاختيار فيما بيننا يتم بلباقة . كل واحد يقترح على الآخر الفتاة الأجمل ، ونشبه في هذا سيدين محافظين لا يمكنهما الدخول إلى حجرة لأنه لا يسعهما القبول بأن يسبق أحدهما الآخـر .

ـ قال مارتان بتأثر : أجل . إنك صديق حقيقي . تعال لنجلس قليلا . أشعر بألم في ساقيّ . »

وذهبنا للجلوس ، فاسترخينا باستمتاع إلى الوراء مع الشمس الساطعة ، وتركنا العالم يتابع جريانه حولنا لبضعة دقائق دون أن نهتـم بـه .

الصبية ذات الثوب الأبيض :

انتصب مارتان فجاة (وقد دفعه إلى ذلك بالتأكيد احساس غامض) ونظره محدق في ممر منعزل من المنتزه حيث تتقدم فتاة مرتدية ثوباً ابيض . وحتى عن بعد ، حين لم تكن أبعاد جسـدها وملامح وجهها تميز بعد بوضوح ، كان يكتشف فيها سحراً خاصاً ، عصياً على الفهم ؛ نوعاً من الصفاء أو الرقة .

حين مرت أمامنا ، اكتشفنا انها صبية . لم تكن طفلة ولا شابة ، وذلك ما أثارنا إلى أبعد حد في الحال . نهض مارتان بوثبة : « يا آنسة ، أنا المخرج فورمان . وكما تعرفين ، مخرج سينمائي » .

مد يده إلى الصبية فصافحتها وعلائم الذهول بادية على عينيها .

التفت مارتان نحوي وقال : « أقدم لك مصوري .

ـ اسمي أندريسيك » قلت وأنا أصافحها بدوري .

انحنت احتراماً .

« نحن محتاران يا آنسة . أبحث هنا عن مشاهد خارجية من أجل فيلمي القادم . كان يجب على معاوني الذي يعرف المنطقة جيداً أن ينتظرنا هنا ، لكنه لم يأت . نتساءل من أين نبدأ زيارتنا المدينة وضواحيها . ثم تابع مارتان مازحاً : يدرس مصوري المشكلة في هذا الكتاب الألماني السميك ، لكنه لن يجد فيه شيئاً مع الأسف » .

ازعجني هذا التلميح إلى الكتاب الذي حرمت منه طيلة الأسبوع. فانتقلت إلى الهجوم على مخرجي « من المؤسف أنك لم تهتم كثيراً بهذا الكتاب . فلو كرست وقتك بشكل جدي للاعداد ولم تترك كل العمل التوثيقي لمصورك ، فربما كانت أفلامك أقل سطحية ولاحتوت على عدد أقل من الأخطاء » ثم قدمت اعتذاراتي إلى الصبية : « المعذرة يا آنسة . لم نكن نود إزعاجك بجدالاتنا المهنية ؛ في الحقيقة ، نحن نعد فيلماً تاريخياً عن الثقافة الأترورية في بوهيميا .

ـ قالت وهي تنحني : أجل

ـ إنه كتاب مشوق ، انظري !»

ناولت الكتاب إلى الصبية التي أخذته برهبة دينية تقريباً وراحت تتصفحه بشرود تلبية لدعوتي كما بدا .

« قلت أيضاً : أظن أن قصر بشاسيك قريب من هنا ، كان مركز الأتروريين التشيكيين ، لكن كيف نذهب اليه ؟

ـ قالت الصبية : إنه قريب جداً . وانتعشت فجأة لأن معرفتها بطريق بشاسيك منحتها اخيراً موقعاً مهماً في هذا الحوار الغامض قليلا.

ـ سأل مارتان متصنعاً الارتياح الكبير : كيف ؟ أنت تعرفين ذلك القصر ؟

ـ قالت : بالتأكيد . إنه على بعد ساعة من هنا .

فخ الإيمان الأعمى :

مضت عشر دقائق ، ثم ربع ساعة ولم تعد الصبية .

اخذ مارتان يطمئنني : « لا تقلق ، إنني متأكد من أنها ستأتي . كان مشهدنا معقولاً جداً وكادت الصغيرة تطير فرحاً » .

كنت موافقاً على هذا الرأي ، بحيث لبثنا ننتظر ، وكل دقيقة تؤجج رغبتنا بتلك المراهقة التي ما زالت طفلة . وعلى هذا المنوال ، لم نلاحظ موعدنا مع الفتاة ذات البنطال المخملي . ولم يكن يخطر ببالنا حتى النهوض لأن صورة الفتاة ذات الثوب الأبيض شغفتنا .

وكان الزمن يمضي .

« قلت أخيراً : اسمع يا مارتان ، أعتقد أنها لن تأتي .

ــ كيف تفسر ذلك ؟ لقد آمنت بنا كما تؤمن بالله . . .

ــ أجل ، وهذا بالضبط سبب بلائنا . لقد آمنت بنا أكثر مما ينبغي .

ــ وإذاً ؟ لعلك كنت تريدها أن لا تؤمن بنا ؟

ــ لكان ذلك أفضل بالتأكيد . فالايمان الملتهب هو أسوأ الحلفاء» . افتتحت نقاشاً وقد انسقت إلى هذه الفكرة : « عندما يعتنق الإنسان أمرا بحرفيته ، فان الايمان يدفع ذلك الأمر الى المحال . والمؤيدون المخلصون لسياسة ما لا يأخذون أبداً على محمل الجد سفسطات تلك السياسة ، بل الغايات العملية التي تتخفى وراء تلك السفسطات فقط . لأن اليافطات السياسية والسفسطات لم تعد لكي يؤمنوا بها ؛ لكنها تستخدم كحجة متفق عليها ضمناً ؛ أما الساذجون الذين يأخذونها على

قال مارتان : مشياً ؟

ـ قالت : أجل ، مشياً .

ـ قلت : لكن معنا سيارة .

ـ قال مارتان : كوني ملاحتنا » لكنني فضلت عدم متابعة طقسنا التقليدي في التلاعب بالألفاظ ، لأن لدي تشخيصاً نفسياً أصح مما عند مارتان ، فشعرت أن المزحات السهلة قد تتهددنا بالأذى وأن الجدية التامة قد تكون أفضل أوراقنا الرابحة .

« قلت : لا نريد إضاعة وقتك يا آنسة ، لكنك إذا تكرمت بتكريس ساعة أو ساعتين لنا وارشادنا إلى الأماكن اللاتي نرغب برؤيتها في المنطقة ، فسنكون لك من الشاكرين .

ـ قالت الصبية منحنية من جديد : طبعاً . أود ذلك ، لكن . . .» في تلك اللحظة فقط ، تبينا أنها كانت تمسك في يدها كيس مشتريات يحتوي خستين . . .« يجب أن أحمل السلطة إلى أمي ، لكن المكان قريب جداً من هنا وسأعود في الحال .

ـ قلت : بالتأكيد ، يجب أن تحملي السلطة الى أمك . إننا ننتظرك هنا .

قالت : اجل ، يلزمني على الأكثر عشر دقائق » .

انحنت من جديد وابتعدت مسرعة .

« قال مارتان : تباً لك !

ـ إنها من الطراز الرفيع ، أليس كذلك ؟

ـ أوافقك . إنني مستعد للتضحية بالمرضتين في سبيلها » .

محمل الجد فسيكتشفون فيها عاجلاً أو آجلاً التناقضات ، وسيبدؤون في التمرد وسينتهون على نحو مخز إلى ارتداء زي الهراطقة والمرتدين . كلا ، لا يحمل الايمان الأعمى أية فائدة ؛ ليس فقط في المذاهب الدينية والسياسية ؛ بل أيضاً في مذهبنا الذي استخدمناه لاستمالة تلك الصبية .

ــ قال مارتان : لم اعد افهمك .

ــ مع أن كلامي واضح جداً : لم نكن في نظر تلك الفتاة إلا سيدين جديين ، فأرادت أن تتصرف بلباقة ، مثل طفلة مهذبة تتخلى عن مقعدها في الترام للمسنين .

ــ إذا كان الأمر كذلك ، لماذا لم تواصل لباقتها حتى النهاية ؟

ــ بالضبط لأنها آمنت بنا كثيراً . حملت الخضار إلى أمها وقصت عليها ما جرى بحماسة : الفيلم التاريخي ، الأتروريون في بوهيميا ... والملما ... »

قاطعني مارتان : « أجل ... أعرف البقية » ثم نهض .

الخيانــة :

أخذت الشمس تنحدر ببطء على أسطحة المدينة، كانت الريح تهب برفق ونحن حزينان . ورغم ذلك ذهبنا إلى مقهى الخدمة الذاتية لنرى فيما إذا كانت الفتاة ذات البنطال المخملي ما تزال تنتظرنا فيه . وطبعاً لم تكن هنــاك . كانت الساعــة السادسة والنصف . نزلنا ثانية إلى السيارة . أصبحنا نشعر فجأة بأننا رجــلان منفيان عن مدينة غريبة وأفراحها ولم يبق أمامنا سوى البحث عن ملجأ في سيارتنا التي تبدو متمتعة بامتياز الحصانة هنا .

هتف مارتان عندما صرنا في السيارة : « حسناً ! لا تتخذ سيماء الحِداد ! الأهم أمامنا » .

كنت ارغب بإجابته أننا لم نخصص إلا ساعة من أجل الأهم : بسبب زوجته جورجيت ولعبة الورق ، لكنني فضلت السكوت .

« أضاف مارتان : من جهة أخرى ، كان النهار حافلا . استطلاع الصغيرة من بوزدراني ، التعرض للفتاة ذات البنطال المخملي ، كل شيء في المدينة جاهز بالنسبة لنا ، ولم يعد أمامنا إلا العودة مرة أخرى » .

لم أجب بشيء . أجل . كان الإستطلاع والتعرض ناجحين على نحو باهر . كان كل ذلك يسير على ما يرام . لكنني فكرت فجأة أن مارتان لم يتوصل إلى شيء آخر منذ عام ، باستثناء هذه الاستطلاعات والتعرضات .

رحت انظر إليه . كانت عيناه تشعان كالمعتاد ببريقهما المتلهف دوماً ، فشعرت في تلك اللحظة إلى أي مدى كان مارتان عزيزاً علي ومقدار حبي للراية التي سار خلفها طيلة حياته : راية الملاحقة الدائمة للنساء .

كان الزمن يمضي فقال مارتان : « الساعة السابعة » .

اوقفنا السيارة على بعد عشرة امتار تقريباً من سور المشفى لكي يتسنى لي مراقبة المدخل في المرآة . كنت ما أزال افكر بتلك الراية . شعرت أن الغاية من تلك الملاحقة للنساء لا تستهدف مع مرور السنين النساء بقدر ما تستهدف الملاحقة في حد ذاتها . بشرط ان يكون المقصود ملاحقة عابثة سلفاً ، يمكن ملاحقة عدد غير محدود من النساء كل يوم وجعل الملاحقة على هذا النحو ملاحقة مطلقة . أجل ، كان مارتان يصير في موقف الملاحقة المطلقة .

ما زلنا ننتظر منذ خمس دقائق ولم تأت الفتاتان .

لم يكن ذلك يقلقني البتة . ليس لمجيئهما أو عدم مجيئهما أية أهمية . لأنه حتى لو جاءتا ، فهل بوسعنا في ساعة واحدة أن نصطحبهما إلى شاليه بعيدة ، ونكسب ثقتهما ، ونضاجعهما لكي نستأذن بأدب في الساعة الثامنة وننطلق ؟ كلا ، فمنذ اللحظة التي قرر فيها مارتان أن كل شيء يجب ان ينتهي في الساعة الثامنة ، حول هذه المغامرة (كما في مرات كثيرة !) إلى لعبة وهمية .

ما زلنا ننتظر منذ عشر دقائق . لم يظهر أحد على مدخل المشفى .

بدأ مارتان يغتاظ وكان يصيح تقريباً : « سأمهلهما خمس دقائق أيضاً ، ولن أنتظر أكثر من ذلك » .

كنت أفكر أيضاً بأن مارتان لم يعد شاباً . إنه يحب زوجته بإخلاص ، ويعيش ، إن صح القول ، حياة زوجية في غاية الرصانة . هذه هي الحقيقة . وفوق هذه الحقيقة ، على مستوى الوهم الساذج والمؤثر ، يستمر شباب مارتان ، الشباب القلق ، مضطرباً ومسرفاً ، ومقتصراً على لعبة بسيطة لم تفلح بعد في تجاوز مضمار ملعبه لكي تبلغ الحياة وتغدو واقعاً . ولأن مارتان هو الفارس الأعمى للضرورة ، فإنه يحول مغامراته إلى لعبة بريئة ، وحتى دون أن ينتبه لذلك ، ويتابعها بكل جوارحــه .

كنت اقول لنفسي : حسناً ! إن مارتان سجين وهمه ، لكن أنا ؟ لماذا اساعده في هــذه اللعبة المضحكة ؟ أنا من يعلم أن كل ذلك ليس إلا خديعة السبت أيضاً مضحكاً أكثر من مارتان ؟ لماذا التظاهر بترقب مغامرة حب في حين انني أعلم تماماً بأن ما يمكنني انتظاره على الأكثر هو إضاعة ساعة ، فاشلة سلفاً ، مع امرأتين مجهولتين ولا مباليتين ؟

عندئذ شاهدت في المرآة الشابتين تعبران سور المشفى . كنت أميز رغم تلك المسافة بريق المسحوق والحمرة على الوجهين ، وكانتا ترتديان

بأناقة صارخة وبالتأكيد ارتبط بتأخرهن بلباسهن المتكلف جداً . أخذتا تتلفتان حولهما وتتجهان إلى سيارتنا .

« قلت متظاهراً بعدم رؤية الفتاتين : واأسفاها يا مارتان . انقضت الربع ساعة . لننطلق » وضغطت على دواسة البنزين .

الندم :

كنا على وشك الخروج من مدينة ب. . . ، نعبر المنازل الأخيرة ، ونتوغل في مشهد الحقول والأشجار ، مع الشمس الغاربة فوق المرتفعات.

كنا ساكتين .

كنت أفكر في يهوذا الاسخريوطي الذي قال كاتب خفيف الدم أنه خان المسيح لأنه كان يؤمن به ايماناً لا نهائياً ، وأنه لم يطق صبراً على انتظار المعجزة التي سيظهر المسيح بها قدرته الالهية لكل اليهود ، لذلك أسلمه إلى جلاديه حتى يرغمه على الاسراع . خانه لأنه كان يريد تعجيل ساعة انتصاره .

كنت أحدث نفسي : للأسف ، حين خنت مارتان ، فلأنني على العكس من ذلك ، انقطعت عن الايمان به (وبقدرته الالهية في سباقه إلى الفتيات) ، إنني هجين دنيء من يهوذا الاسخريوطي وتوما الذي يدعى الشكاك .

كنت أشعر أن ذنبي يزيد من تعاطفي مع مارتان وأن راية الملاحقة الدائمة للنساء (تلك الراية التي كنا نسمع خفقانها باستمرار فوق راسينا) تؤثر فيَّ لدرجة البكاء . وبدأت ألوم نفسي على تهوري .

هل سافلح حقاً ذات يوم بالتخلي انا ايضاً عن تلك التصرفات التي تعني الشباب ؟ وماذا بوسعي أن افعل غير تقليدها ، ومحاولة العثور في حياتي الحكيمة على ارض صغيرة مُسَيَّجَة لأجل هذا النشاط الأخرق؟ وما أهمية ان يكون كل ذلك لعبة عابثة ؟ ما أهمية أن اعرف ذلك ؟ وهل سأقلع عن تمثيل الدور لأنه بكل بساطة عابث ؟

تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية :

كان مارتان بجانبي على مقعده وكان غيظه يتلاشى بهدوء .

« قال لي : اسمع، هل حقاً صاحبتك طالبة الطب من صنف رفيع؟

ـ أخبرتك بذلك . من صنف زوجتك جورجيت » .

طرح مارتان علي أسئلة أخرى . اضطررت أيضاً ان أصف له طالبة الطب .

ثم قال : « ربما يمكنك أن تمررها لي فيما بعد ؟ » .

اردت ان اكون مقنعاً : « اخشى ان يكون هذا صعباً . قد يزعجها ذلك لانك صديقي . لديها مبادىء . . .

ـ لديها مبادىء . . . » ردد مارتان بحزن ، ورأيت بوضوح أنه يأسف لذلك .

لم اكن أريد إيلامه .

« قلت : إذا تظاهرت بعدم معرفتك . ربما يمكنك اعتبار نفسك شخصاً آخر

ـ فكرة جيدة ! مثلاً ، اعتبرني فورمان ، مثل اليوم .

ـ لا يهمها المخرجون . انها تفضل الرياضيين .

ـ قال مارتان : لم لا ؟ كل شيء ممكن » وغدونا من جديد في غمرة النقاش . كان الافق يتضح رويداً رويداً ، ويوشك أن يتمايل لناظرينا في المساء الذي بدأ يهبط ، مثل تفاحة جميلة يانعة ومشعة .

اسمحوا لي أن أسمي تلك التفاحة ، بشيء من الفصاحة ، تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية .

لعبـة الأوتو ـ سـتوب *

* الاوتو ـ ستوب : استيقاف سيارة عابرة على الطرق العامة للإنتقال بها مجانا .

١

انزلق مؤشر عداد البنزين فجأة نحو الصفر فقال السائق الشاب بأن ماتستهلكه هذه السيارة امر غير محتمل . وعلقت الفتاة (البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً تقريباً) : « المهم أن لا نتعطل بسبب الوقود مثل المرة الماضية » وذكرته بأماكن عدة حدث فيها ذلك . أجابها الشاب بأنه ليس قلقاً من ذلك ، لأن كل مايحصل له برفقتها له سحر المغامرة . لم تكن الفتاة موافقة على هذا الرأي : فعندما كانا يتعطلان بسبب الوقود في أرض مكشوفة ، فإن المغامرة إذا صدقناه تكون دوماً لها ولها وحدها، لأنه كان يختبيء بينما كان يجب عليها استخدام وإساءة استخدام مفاتنها الأنثوية : تنادي سيارة وتجعلها تقلها إلى أقرب محطة وقود ، ثم توقف سيارة أخرى وتعود بالصفيحة . علق الشاب بأن السائقين الذين كانوا ينقلونها بجوارهم كانوا سمجين ولا بد حتى تتكلم عن مهمتها كأنها سخرة أجابت الفتاة (بغنج لكع) أنهم كانوا احياناً جذابين جداً لكن قلما كان بوسعها الإفادة من ذلك ، لأنها تكون مرتبكة بالصفيحة ومضطرة لمغادرتهم دون أن يتاح لهما الوقت للقيام بشيء . قال : « غولة » . أجابته بأنه إذا كان يوجد غول فإنه هو . والله أعلم كم من الفتيات كن يستوقفنه على الطريق عندما كان يمضي وحيداً ! وبينما كان يقود ، احتضن كتفيها ومنحها قبلة على جبهتها . كان يعلم أنها تحبه وتغار عليه . والغيرة ليست سمة الطبع الأنيس جداً ؛ لكن إذا تجنب المرء المغالاة فيها (إذا ترافقت بالتواضع) فإن فيها رغم كل مساوئها شيئاً ما مؤثر . كان يفكر بذلك على كل حال . ولأنه لم يكن يبلغ من العمر الا ثمانية وعشرين عاماً ، فقد كان يظن نفسه كهلاً ويتصور أنه يعرف عن النساء كل ما يمكن لرجل أن يعرفه عنهن . وما كان يحبه في الفتاة الجالسة بجانبه هو بالضبط ماوجده حتى الآن نادراً في النساء : البراءة .

أصبحت الإبرة على الصفر حين شاهد على يمين الطريق لوحة تشير إلى وجود محطة وقود على بعد خمسمائة متر . وما كادت تعلن عن شعورها بالإرتياح ، حتى أضاء الغماز اليساري وصعد فوق المنبسط الترابي أمام مضخات الوقود . لكن سيارة ضخمة ذات خزان كبير كانت واقفة أمام المضخات وتملؤها بواسطة أنبوب غليظ . قال : « يا للصدفة السيئة » ونزل . هتف لعامل المضخة : هل سيستغرق ذلك طويلاً ؟ ــ دقيقة ــ دقيقة ، هذا معروف » كان يريد الجلوس ثانية في السيارة ، لكنه تبين أن الفتاة نزلت من الباب الآخر . قالت له : « أعذرني . ــ فسألها قصداً لكي يحرجها : أين تذهبين ؟ » مضى عام على تعارفهما ، لكنها كانت ماتزال تصل إلى درجة الإحمرار خجلا أمامه وكان يحب كثيراً لحظات حيائها ، لأنها تميزها أولاً عن النساء اللواتي إليهن قبلها ولأنه يدرك ثانياً قانون الزوال الكلي الذي يجعل حياء صديقته ثميناً بالنسبة له .

٢

كانت الفتاة تكره واجب التوسل إليه للتوقف أمام غابة أشجار صغيرة (غالباً ماكان يسير لعدة ساعات بلا انقطاع) . كانت تغضب دائماً من الدهشة المتكلفة التي يسألها بها عن السبب . كانت تعلم أن حياءها مثير للسخرية وقديم الطراز . تأكدت من ذلك مراراً في عملها ، حيث يسخر الناس منها ويثيرونها عمداً بسبب حشمتها . ودوماً كانت تحذر سلفاً من فكرة أنها ستحمر . كانت ترغب بأن تشعر بالراحة في جسدها ، دون هم أو قلق ، مثلما يتاح ذلك لمعظم الفتيات اللواتي تحاذيهن . بل أنها ابتكرت ، من أجل استعمالها الشخصي ، أسلوباً مزيداً للاقناع الذاتي : كانت تردد أن كل كائن انساني يتلقى عند ولادته جسداً من بين الملايين من الأجساد الأخرى المعدة للأخذ ، كما لو أنه يُمْنَحُ منزلاً شبيهاً بملايين المنازل الأخرى في مجمع سكني كبير ، وأن الجسد إذاً شيء طارىء ولا شخصي ، وهو ليس سوى سلعة مستعارة ومصنعة . هذا ما كانت ترد ده بكل التنويعات المحتملة ، لكن دون أن تتمكن من ترسيخ هذا الأسلوب بالإحساس في ذهنها . كانت ثنائية الروح والجسد غريبة عنها . كانت تتماهى كثيراً في جسدها كي لا تشعرها هذه الثنائية بالقلق .

كانت تشعر بهذا القلق حتى إلى جانب الشاب ؛ كانت تعرفه منذ عام وتشعر بالسعادة لأنه بالتأكيد لم يميز مطلقاً بين جسدها وروحها لدرجة أنه كان بوسعها العيش معه جسداً وروحاً . كانت السعادة تراودها من غياب هذه الثنائية ، لكن ليس ثمة مسافة كبيرة بين السعادة والشك وكانت مفعمة بالشكوك . فعلى سبيل المثال كانت تقول لنفسها غالباً أنه توجد نساء أخريات أكثر إغراء (وهن دون قلق) وأن صديقها الذي يعرف هذا النموذج من المرأة ولا يخفي ذلك عنها سيتركها ذات يوم من أجل إحداهن . (طبعاً كان الشاب يعلن بأنه تعرف على ما يكفي منهن هكذا من أجل أيامه القادمة ، لكنها كانت تعرف أنه أكثر شباباً مما كان يظن هو نفسه) كانت تريده لنفسها كلياً وتريد نفسها له كلياً ، لكنها كلما سعت أكثر لإعطائه كل شيء ، كلما تزايد إحساسها بأنها تضن عليه بما يمنحه حب ظاهري وسطحي وبما يمنحه الغزل . وكانت تلوم نفسها لعدم قدرتها على الجمع بين الجدية والخفة .

لكنها يومئذ لم تتألم ولم تفكر بشيء من هذا القبيل . كان يوم عطلتها الأول (عطلة الخمسة عشر يوماً التي كانت على مدار العام نقطة التقاء رغباتها) والسماء زرقاء (كانت تتساءل على مدار العام فيما إذا كانت السماء زرقاء حقاً) وكان برفقتها . بعد أن سألها « أين أنت ذاهبة ؟ » احمرت وانطلقت راكضة دون أن تنبث بكلمة . التفت حول محطة الوقود التي توجد على حافة الطريق في أرض منبسطة ومكشوفة ، وكانت بداية غابة على بعد مائة متر (في الاتجاه الذي يترتب عليهما ارتياده بعد ذلك) فانطلقت في هذا الاتجاه واختفت وراء دغلة مستسلمة لشعور بالراحة . (وحتى الفرح الذي يسببه حضور المحبوب ، لا بد للمرء أن يكون وحيداً لكي يشعر بفيضه) .

ثم خرجت من الغابة وعادت إلى الطريق ؛ ومن المكان الذي ألفت نفسها فيه ، راحت تشاهد المحطة ؛ بينما بدأت سيارة الصهريج الضخمة

تغادر الآن . تقدمت السيارة نحو العمود الأحمر لمضخة الوقود . أخذت تتمشى على امتداد الطريق ؛ وبالكاد تلفتت من حين لآخر كي ترى فيما إذا وصل . شاهدته أخيراً ؛ فتوقفت وأخذت تشير له ، كما تشير مستوقفة لسيارة عابرة . فرملت السيارة ووقفت بمحاذاتها تماماً . مال الشاب نحو زجاج النافذة وأنزله ، ثم ابتسم وسأل : « أين أنت ذاهبة يا آنسة ؟ واستعلمت الفتاة بدورها بابتسامة دلال : — هل أنت ذاهب إلى بيستريكا ؟ فقال وهو يفتح الباب : اصعدي ، أرجوك » فصعدت وانطلقت السيارة .

٣

كان الشاب يسر دائماً لرؤيتها مبتهجة ؛ وهو ما كان يحدث نادراً : كان عملها شاقاً (جو مقيت ، ساعات عمل إضافية كثيرة بدون تعويض) وفوق ذلك أم مريضة في المنزل ؛ وبسبب إرهاقها في أغلب الأحيان ، كانت تفقد هدوءها وينقصها الإطمئنان وترزح بيسر تحت وطأة الخوف والقلق . كان يقابل إذاً كل دلالة فرح من جهتها بالاهتمام اللطيف للأخ البكر . ابتسم لها وقال : « إنني محظوظ اليوم . أقود منذ خمس سنوات ولم أنقل بجانبي مطلقاً مستوقفة بمثل هذا الجمال » .

كانت الفتاة تتلقى بامتنان أقل مديح من صديقها ؛ ولكي تحتفظ بشيء من دفء ذلك ، قالت :

« إنك تتقن الكذب .

— هل أبدو كاذباً ؟

— قالت : يبدو أنك تحب الكذب على النساء » وتخلل كلامها بدون علمها شيء من قلقها القديم ، لأنها كانت تعتقد حقاً بأنه يروق لصديقها الكذب على النساء .

كان يغضب عادة من نوبات غيرة صديقته ، لكن تيسر له يومئذ أن لا يعيرها اهتماماً لأن هذه العبارة لم تكن موجهة إليه بل إلى سائق مجهول . اكتفى بطرح سؤال تافه : « هل يزعجك هذا ؟

ــ قالت له : لو كنت صديقتك لأزعجني هذا » وكان هذا درساً اخلاقياً لطيفاً من أجل الشاب ؛ لكن نهاية العبارة لم تكن موجهة إلا للسائق الغريب : « هذا لا يزعجني ما دمت لا أعرفك » .

ــ تغفر المرأة دوماً بيسر لغريب أكثر من صديقها (وكان هذا درساً اخلاقياً لطيفاً يوجهه بدوره إلى الفتاة) « إذاً بوسعنا التفاهم ما دمنا غريبين أحدنا عن الآخر » .

تظاهرت بعدم إدراك الفارق التعليمي المضمر في هذه الملاحظة وقررت الا تحادث بعد إلا السائق الغريب . « وبماذا يفيدنا هذا ما دمنا سنفترق بعد بضع دقائق ؟

ــ سألها : لماذا ؟

ــ انت تعلم جيداً انني سأنزل في بيستريكا .

ــ وإذا نزلت معك ؟ »

عند هذه الكلمات ، رفعت بصرها إلى الشاب وتأكدت أنه غدا تماماً مثلما كانت تتصوره في ساعات غيرتها الأكثر إيلاماً ؛ وأصبحت تخشى من هذا الدلال الذي يحادثها به (هي المستوقفة المجهولة) والذي يجعله مغرياً جداً . اجابت إذاً بوقاحة مثيرة :

« أتساءل عما ستفعل بي ؟

ــ قال بلطف : لن احتاج لكثير من التفكير كي أعرف ما سأفعله بفتاة في مثل هذا الجمال » وهــذه المرة أيضــاً كانت الفتاة أكثر مــن شخصية المستوقفة .

كانت هذه الكلمات اللطيفة بالنسبة لها بمثابة ضبطها له متلبساً بالجريمة ، وكاعتراف منتزع بخدعة بارعة ؛ فأحست أن شعوراً مفاجئاً وخاطفاً بالحقد يستولي عليها وقالت : « إنك تتوهم ! »

راح يراقبها : صار وجه الفتاة العنيد متشنجاً ؛ فشعر حيالها بشفقة غريبة وتمنى أن يعثر ثانية على نظرتها المألوفة والأنيسة (التي كان يقول عنها بأنها بسيطة وطفولية) ؛ مال نحوها وضم كتفيها وتفوه لاسمها برقة راغباً إلغاء اللعبة .

لكنها تخلصت منه وقالت : إنك تتسرع قليلاً ! »

ـ قال مبتعداً عنها : المعذرة يا آنسة » ثم ركز انتباهه على الطريق دون أن ينبث بكلمة .

٤

تخلت الفتاة عن هذه الغيرة بالسرعة التي خضعت لها فيها . كان لديها ما يكفي من العقل السليم لكي تعلم أن كل ذلك ليس سوى لعبة ؛ واخذت تشعر بنفسها مثيرة للسخرية قليلاً لأنها ابعدت صديقها عنها في غمرة الغيرة ، ولم تكن ترغب أن يلاحظ ذلك . كانت تتمتع لحسن الحظ بمقدرة خارقة على تغيير اتجاه تصرفاتها بالتالي ، وقررت بأنها لم تبعده بسبب الغيظ ، لكن وحسب كي تستمر اللعبة التي كان عدم الاكتراث بها يناسب تماماً أول يوم من العطلة . .

إذاً اصبحت من جديد المستوقفة التي أبعدت لتوها السائق الجريء جداً ، ولكن لكي تؤخر الغزو فقط وتمنحه نكهة أكثر . التفتت نحوه بخفة وقالت بصوت ملاطف : « لم أكن أريد إيلامك يا سيدي

ـ قال : اعذريني ، لن المسك ثانية » .

كان يحقد عليها لأنها لم تفهمه ولأنها رفضت أن تغدو هي نفسها حين كان يرغب بذلك ؛ وبما أنها أصبحت مصممة على الاحتفاظ بقناعها، صب غضبه ثانية على المستوقفة المجهولة التي كانت تمثلها ، حينذاك ، اكتشف فجاة شخصية دوره : تخلى عن ملاطفاته التي كانت وسيلة ملتوية لإسعاد صديقته ، واخذ يمثل دور الرجل الذي يشدد في علاقاته بالنساء على المظاهر الرجولية العنيفة : الإرادة والوقاحة والثقة .

كان هذا الدور مناقضاً تماماً للاهتمام المجنون الذي كان يشعر به حيال الفتاة . صحيح انه اظهر لباقة أقل مع النساء قبل أن يتعرف عليها ، لكن لم يكن فيه حتى ذلك الحين شيء من الرجل القاسي والشيطاني ، لأنه لم يكن يتميز بقوة إرادته ولا بغياب هواجسه . مع ذلك ، إذا لم يكن يشبه هذا النوع من الرجل ، فقد رغب فيما مضى بمشابهته .

إنها بالتاكيد رغبة ساذجة قليلاً ، لكن ماذا يفعل بها : الرغبات الصبيانية تفلت من كل شراك النفس الراشدة وتقاومها أحياناً حتى بلوغ الشيخوخة النائية . وتنتهز هذه الرغبة الصبيانية الفرصة لكي تتجسد في الدور الذي يعرض عليها .

كان المدى الساخر للشاب يوافق الفتاة : كان يحررها من نفسها . لأنها كانت هي نفسها الغيرة في البداية . وحالما كف صديقها عن إظهار مواهبه كفاو لكي لا يبدي إلا وجهه الحازم ، هدأت غيرتها . كان يمكنها تناسي نفسها والانغماس في دورها .

دورها ؟ اي دور ؟ دور مستمد من الأدب الرديء . كانت قد أوقفت السيارة ، ولم يكن هذا لكي تذهب إلى اي مكان ، بل من أجل إغواء الرجل الجالس خلف المقود ؛ فلم تكن المستوقفة إلا غاوية وضيعة

تحسن استخدام مفاتنها على نحو رائع . اندست الفتاة في جلد هـذه الشخصية الروائية بيسر فاجاها هي نفسها .

هكذا كانا متجاورين : سائق ومستوقفة ، كلاهما مجهولان .

٥

وأكثر ما كان يأسف الشاب لعدم وجوده في الحياة ، هو اللامبالاة . كانت طريق حياته مرسومة بدقة صارمة: كان عمله يستغرق أكثر من ثماني ساعات يومياً ؛ ويقضي بقيـة نهاره في السأم الإلزامي للإجتماعـات والدراسة في المنزل ؛ وكان يشبع من خلال نظرات زملائه الكثيرين حتى الوقت التافه من حياته الخاصة التي لم يواظب على اخفائها في أي وقت والتي اصبحت مراراً موضوع ثرثرات واجتماعات علنية ، لم يكن حتى أسبوعا العطلة ذاتهما يزودانه بأي شعور بالخلاص او المغامرة ، كان هنا ايضاً يسود الشبح الباهت للتخطيط الدقيق ، وبسبب قلة المساكن المخصصة لقضاء الاجازات ، اضطر لأن يحجز قبل ستة أشهر حجرة في التاترا ، وقد احتاج من أجل ذلك إلى توصية من اللجنة النقابية للمشروع الذي يعمل فيه ، اللجنة التي لم تكن روحها المواظبة تتوانى للحظة عن متابعة تطرفاته وحركاته .

انتهى إلى الإقرار بذلك كله ، لكن كان يعتريه أحياناً وهم رهيب لطريق تلاحقه عليها انظار الجميع ، دون أن يستطيع التنحي عنهامطلقاً . انبثقت هذه الرؤية في هذه اللحظة بالذات ، وفي انقطاع غريب ، اختلطت عليه الطريق المتخيلة بالطريق الحقيقية التي يسير عليها ، فقاده هذا التداعي الغريب والقصير للأفكار إلى شذوذ مفاجيء .

« إلى اين قلت انك ذاهبة ؟

— إلى بيستريكا .

ــ وماذا ستفعلين هناك ؟

ــ لدي موعد .

ــ مع مـــن ؟

ــ مع سيد .

كانت السيارة تصل بالضبط إلى مفترق طريق فسيح ، أبطأ الرجل سرعته ليتبين لافتات الارشاد ، ثم اتجه الى اليمين .

« ما الذي سيحدث إن لم تذهبي إلى موعدك ؟

ــ ستكون مسؤوليتك ، وسيترتب عليك الاهتمام بي .

ــ ألم تلاحظي انني سلكت طريق نوقي زامكي ؟

ــ حقاً ؟ لقد فقدت رشدك !

ــ قال : لا تخشي شيئاً ! سأهتم بك » .

واكتسبت اللعبة في الحال صفة جديدة . لم تكن السيارة تبعد عن عن الهدف المتخيل وحسب ــ بيستريكا ــ بل عن الهدف الحقيقي أيضاً الذي كانت قد سلكت من أجله الطريق في الصباح نفسه : جبال التاترا والحجرة المحجوزة . اصبح الوجود الممثل يتعدى على الوجود الحقيقي . وصار الشاب يبتعد في آن معاً عن نفسه وعن الطريق الصارمة التي لم يحد عنها أبداً من قبل .

اندهشت : « لكنك قلت لي بأنك ذاهب إلى التاترا ؟

ــ أنا أذهب إلى المكان الذي يحلو لي يا آنسة . إنني رجـل حر وافعل ما أشاء وما يعجبني » .

٦

كان الليل قد بدأ يحل حين وصلا إلى نوفي زامكي .

لم يكن الشاب قـد ارتادها من قبل ، واحتاج إلى فترة مديدة للإستدلال . توقف مراراً لكي يسأل المارة عن مكان الفندق . كانت الشوارع محفرة ، واستغرقا ما ينوف على الربع ساعة للوصول إلى الفندق بعد عدة دورات وانعطافات مع أنه قريب (كما قالت إرشادات المارة) . لم يكن الفندق جذاباً ، ولكنه كان الوحيد في المدينة وكان الشاب متعباً من المسير . قال : « انتظراني هنا » وغادر السيارة .

اصبح ثانية هو نفسه ، بعد مغادرته . كان يزعجه أن يلفي نفسه على حين غرة في مكان غير متوقع تماماً ، خصوصاً وأن أحداً لم يرغمه عليه وأنه هو نفسه لم يكن يريد ذلك . وكان يلوم نفسه على مبالغته ، ثم عزم على مداراة قلقه : ستنتظر الحجرة في التاترا إلى اليوم التالي ، وأي سوء يوجد في الاحتفال بهذا اليوم الأول من الإجازة بشيء مما هو غير متوقـع ؟

اجتاز قاعة الطعام العابقة بالدخان والمزدحمة والصاخبة وسأل عن مكتب الاستقبال . أشاروا له إلى آخر الردهة عند أسفل الدرج ، حيث تصدرت شقراء تحت لوحة مغطاة بالمفاتيح ، وحصل بصعوبة على الغرفة الشاغرة الاخيرة .

حين أصبحت الفتاة أيضاً وحيدة تخلت من دورها . لكنها لـم تكن غاضبة من تغيير خط السير . كانت من الاخلاص لصديقها بحيث لم تكن تضع موضع الشك شيئاً مما كان يفعله ، وكانت تهبه بثقة ساعات حياتها . ثم تخيلت أن فتيات أخريات ممن صادفهن خلال أسفاره انتظرنه في السيارة كما تنتظره فيها الآن . والغريب في الأمر أن هذه الفكرة لم تكن تؤذيها ، أخذت تبتسم ، كان يبدو لها جميلاً أن تغدو هذه المرة تلك الغريبة ، تلك الغريبة غير المسؤولة والوقحة ، وواحدة من هؤلاء

اللواتي كانت تغار منهن كثيراً ، كانت تظن أنها بذلك تسحب البساط من تحت أقدامهن ، بعد أن وجدت الوسيلة للإستيلاء على أسلحتهن ، وتهب صديقها أخيراً ما لم تكن قد عرفت بعد أن تعطيه اياه : الطيش واللامبالاة وعدم الإحتشام وكانت تشعر بإرتياح خاص لفكرة أنه كان بوسعها وحدها أن تكون كل النساء ، وبوسعها هكذا (وحدها) الإستئثار بكل اهتمام حبيبها وشغفه الكلي بها .

فتح الشاب الباب وأدخل الفتاة إلى صالة المطعم . عثر على الطاولة الوحيدة الشاغرة في زاوية وسط الصخب والقذارة والدخان .



قالت الفتاة بنبرة تحد : « سأرى الآن كيف ستهتم بي .

ــ هل ستتناولين مشروباً فاتحاً للشهية ؟

قلما كانت الفتاة ميالة للكحول ، كانت تشرب قليلا من النبيذ وتؤثر البورتو . لكنها اجابت هذه المرة بتصميم : فودكا .

ــ قال : ممتاز أتمنى ألا تثملي .

ــ قالت : ولماذا ؟

لم يجب ونادى النادل ، طلب قدحي فودكا وشريحتي لحم . ثم أحضر النادل بعد لحظة القدحين ووضعهما أمامهما .

رفع قدحه وقال : في صحتك !

ــ أليس بوسعك إيجاد شيء أكثر طرافة ؟

كان يوجد شيء في لعبة الفتاة قد بدأ يغيظه ، الآن وقد أصبحا وجهاً لوجه ، ادرك أنها اذا كانت تظهر له على أنها فتاة أخرى فليس

هدا فقط بسبب « كلماتها » ، لكن لانها تغيرت تماماً في حركاتها وفي ايمائيتها ، ولانها كانت تشبه بدقة مؤسفة ذلك النموذج من المرأة الذي خبره جيداً والذي كان يشعره بإشمئزاز طفيف .

بدل إذاً نخبه (وهو يمسك قدحه بيده الممدودة) : « حسناً ، لا أشرب في صحتك بل في صحة صنفك الذي يجمع عيوب الإنسان بأسمى صفات الحيوان .

ــ سألت : عندما تتكلم عن صنفي ، هل تعني جميع النساء ؟

ــ لا ، فقط اللواتي يشبهنك .

ــ على اية حال ، لا أجد مقارنة المرأة بالحيوان ظريفة جداً .

رد وهو مايزال يمسك القدح بيده : لن اشرب اذاً في صحة اشباهك بل في صحة روحك ، فهل أنت موافقة ؟ في صحة روحك التي تتقد حين تهبط من الرأس إلى البطن والتي تخمد حين تصعد ثانية من البطن إلى الرأس » .

رفعت قدحها : « موافقة ، في صحة روحي التي تهبط إلى بطني

ــ قال : أيضا تعديل طفيف ، لنشرب بالاصح في صحة بطنك الذي تهبط اليه روحك .

ــ قالت : في صحة بطني » وبدا على بطنها (حين اشار اليه بإسمه) انه يستجيب للنداء ، صارت تشعر بكل ميليمتر من بشرته .

ثم أحضر النادل شريحتي لحم . طلبا قدحي ڤودكا مرة ثانية وماءً غازياً (شربا هذه المرة في صحة نهدي الفتاة) واستمر الحديث بلهجة عابثة على نحو غريب . أخذ يغتاظ اكثر فاكثر لرؤيته إلى اي مدى غدت

صديقته تحسن السلوك كامرأة طائشة ، فراح يقول لنفسه : ما دامت تعرف جيدا كيف تصير هذه الشخصية ، فلانها هي شخصيتها حقا ، في الحقيقة لم تكن روح سواها المتدفقة من مكان ما هي التي تتسلل إلى تحت جلدها ، بل كانت روحها نفسها التي تجسدها هكذا ، أو على الاقل جزء منها كانت تحافظ عليه عادة مسجونا ، لكن التذرع باللعبة جعله يفلت من قفصه ، فقد كانت بالتأكيد تظن أنها تتنكر وهي تمثل هذه اللعبة ، لكن ألم يكن الامر على العكس تماما ؟ ألم تكن هذه اللعبة هي التي تعيدها إلى نفسها ؟ والتي تحررها ؟ لا ، فأمامه لم تكن توجد امرأة أخرى في جسد صديقته ، بل كانت صديقته تماما ، هي نفسها ولا واحدة سواها . أخذ ينظر إليها بنفور متزايد .

لكن ذلك لم يكن نفوراً فقط . فكلما بدت له غريبة عقلياً أكثر كلما صار يشتهيها جسدياً أكثر ، فغرابة الروح فرّدت جسدها كامرأة ، وبالاحرى ، هذه الغرابة جعلت أخيراً من هذا الجسد جسدا كما لو أن هذا الجسد لم يكن موجودا بالنسبة له حتى ذلك الحين الا في ضباب التعاطف والوجد والاهتمام والحب والانفعال ، كما لو كان ضائعا في هذا الضباب (أجل ، كما لو كان الجسد ضائعا !) وكان الشاب يحسب أنه يرى جسد صديقته لأول مرة .

بعد قدح الفودكا الثالث الممزوج بالمياه الغازية ، نهضت وقالت بابتسامة دلال : « اعذرني

ــ هل يمكنني أن أسألك أين انت ذاهبة يا آنسة ؟

ــ لأبول ، بعد إذنك » وانسلت بين الطاولات نحو الستارة المخملية آخر المطعم .

٨

كانت الفتاة مسرورة لانها تركته كالمذهول من هذه الكلمة ــ غير المؤذية طبعا ــ لكن التي لم يكن قد سمعها تتفوه بها أبدا ، فلم يكن

شيء في رأيها يعبر عن شخصية المرأة التي كانت تجسدها افضل من التفخيم المنصب بدلال على هذه الكلمة ، اجل ؛ اصبحت مسرورة وبحالة ممتازة ، فاللعبة صارت تسحرها وتزودها بأحاسيس جديدة تماماً : على سبيل المثال الاحساس بلا مبالاة غير مسؤولة .

شعرت فجاة بنفسها مرتاحة تماما ، هي التي كانت تخشى اللحظة الآتية . كانت حياة المرأة الأخرى هذه التي ألفت نفسها مستغرقة فيها بغتة ، حياة بلا حياء وبلا تحديدات سلوكية ، بلا ماض ولا مستقبل وبلا التزام ؛ كانت حياة حرة على نحو استثنائي . وبعد ان اصبحت المستوقفة ، غدت قادرة على كل شيء ؛ كان كل شيء مسموحاً لها ؛ كل قول وكل فعل وكل شعور .

لاحظت وهي تجتاز القاعة بان الناس كانوا يراقبونها من كل الطاولات ، وهذا ايضا كان إحساسا جديدا لم تكن تعرفه : اللذة الفاجرة التي كان جسدها يزودها بها . وحتى الآن لم تتمكن إطلاقا من التحرر تماما من المراهقة ذات الأربعة عشر عاما التي تخجل من نهديها وتشعر بإحساس البذاءة المقيت لفكرة انهما سيبرزان على جسدها ويصبحان مرئيين . ومع أنها كانت فخورة بكونها جميلة وذات قد رشيق ، فقد كان الحياء يصحح هذا الزهو مباشرة : كانت تشعر كثيرا بان الجمال الانثوي يؤثر أولاً بقدرته على الاثارة الجنسية وكان هذا بالنسبة لها شيئاً مقيتاً ؛ وكانت تتمنى أن لا يتوجه إلى جسدها إلا الرجل الذي تحبه ؛ وعندما كان الرجال ينظرون إلى صدرها في الشارع ، كان يبدو لها بأن تلك النظرات تدنس شيئا من حميميتها الاكثر سرية التي لم تكن تخص سواها وسوى حبيبها . لكنها غدت الآن المستوقفة ، امرأة بدون مستقبل ، فقد تحررت من سلاسل حبها الرقيقة وبدأت تدرك جسدها بقوة ؛ وكان هذا الجسد يثيرها لا سيما وان النظرات التي كانت تراقبها ، كانت غريبة جدا عنها » .

كانت تمر قرب الطاولة الأخيرة حين سألها بالفرنسية رجل ثمل بعض الشيء أراد ، بالتأكيد ، التميز بمعرفته للناس : « بكم يا آنسة ؟ » .

فهمت الفتاة ، فأخذت تحدب جذعها وتعيش بشدة كل حركة من حركات وركيها ؛ ثم اختفت وراء الستارة .

- ٩ -

إنها لعبة عجيبة. كانت الغرابة تأتي على سبيل المثال من أن الشاب ولو كان قد تطبع تماما بطبع السائق المجهول ، فانه ظل مصرا على رؤية صديقته في المستوقفـة . وهذا بالضبط ما كان مرهقـا ؛ إذ كان يرى صديقتـه منهمكة في إغراء مجهول ، وكان سيء الحظ لحضوره هـذا المشهد ، ولرؤيته عن كثب ما كانت تبديه وما كانت تقوله حين كانت تخونه (حين ستخونـه) ؛ كان له الشرف المفـارق بتقديم نفسه طعما لخيانتهـا .

الأسوأ أنه كان يعبدها أكثر مما كان يحبها ؛ وكان يقول لنفسه دائما بأن الفتاة ليس لها حقيقة إلا في حدود الوفاء والطهارة ، وانها لم تكن بكل بساطة موجودة بعد هذه الحدود ، وانها ستكف عن ان تكون هي نفسها بعد هـذه الحدود كما يكف الماء عن أن يكون ماء بعـد درجة الغليان . وعندما صار يشاهدها تخترق هـذه الحدود المرعبة برشاقة طبيعية ، راح يشعر بالغضب يستولي عليه .

عادت من المغاسل وتذمرت قائلة : « قال رجل لي : بكم يا آنسة ؟

ــ لا تندهشي ! إنك تبدين عاهرة .

ــ هل تعلم أني لا أبالي بذلك ؟

ــ كان عليك البقاء مع ذلك السيد !

ــ لكنني برفقتك .

ـ بوسعك اللحاق به فيما بعد ، وليس امامك إلا الاتفاق معه .

ـ إنه لا يعجبني .

ـ لكن لن يضايقك مطلقـا أن يكون لديك عـدة رجـال في الليلة نفسـها .

ـ ولم لا ؟ إذا كانوا فتيانا وسيمين .

ـ هل تفضلين الحصول عليهم واحداً تلو الآخر أم جميعهم سوية ؟

ـ كلاهما » .

بدات المحادثة تصبح خطره شيئاً فشيئاً ؛ وكانت منزعجة منهـا قليلا لكن لم يكن بوسعها الاحتجاج . والمرء ليس حرا في اللعبة ، فاللعبة بالنسبة للاعب هي مكيدة . ولو لم يكن الأمر يتعلق بلعبة ، ولو كانـا مجهولين ، أحدهما بالنسبة للآخر ، لكانت المستوقفة قد استطاعت منذ زمن طويل أن تشعر بالاهانة وتغادر ؛ لكن ليس ثمة وسيلة للفرار من اللعبـة ؛ فليس بوسـع الفريق مغـادرة الملعب قبل نهايـة المباراة ، ولا تستطيع قِطَع لعبة الشطرنج الخروج من خاناتها على الرقعة،ولا يمكن تجاوز حدود مجال اللعبة . كانت الفتـاة تعلم انها ملزمـة بقبول كل شيء ، تماما لأنه كان المقصود لعبة . كانت تعلم بأنها كلما توغلت في اللعبة، كلما غدت مجرد لعبة ، وكلما كانت مضطرة اكثر على لعبها بانقياد . ولم يكن يجدي شيئا الاستنجاد بالحكمة وتحذير النفس الطائشة لكي تحافظ على تميزها ولا تأخذ اللعبـة على محمل الجد ، ولأنهـا كانت بالضبط لعبة ، لم تكن النفس خائفة ولم تكن تدافع عن نفسها وكانت تستسلم للعبة كأنها مخدر .

نادى الشـاب النادل ودفع الحساب ، ثم نهض وقال : « لنذهب من هنـا

ـ سألته وهي تتظاهر بعدم الفهم : إلى أين ؟

ـ هيا وبدون أسئلة !

ـ كيف تكلمني هكذا !

ـ كما أتكلم مع عاهرة » .

- ١٠ -

كانا يصعدان الدرج الباهت الاضاءة ؛ كانت مجموعة من الرجال الثملين قليلا ينتظرون امام المغاسل ، ضمها من الخلف بحيث أمسكت راحة يده بأحد نهديها. شاهد الرجال القريبون من المغاسل ذلك، فأخذوا يلقون الدعابات . أرادت التخلص لكنه أرغمها على السكون . قال : « ابقي هادئة » وهو ما حياه عليه الرجال بتضامن فظ ، موجهين إلى الفتاة بعض العبارات الداعـرة . وصلا إلى الطابق الأول : فتح باب الحجرة ووصل قاطع التيـار .

كانت حجرة صغيرة بسريرين مع طاولة وكرسي ومغسلة . أوصد الشاب الباب بالمزلاج والتفت نحو الفتاة . كانت تمكث امامه في هيئـة متحدية وفي عينيها شبق وقح . ينظـر إليها ويسعى إلى اكتشـاف الملامح المألوفة التي كان يحبها بحنان وراء هذا التعبير الشهواني . كان هذا كالنظر إلى صورتين في العدسة نفسها : صورتين متنضدتين تتبدى إحداهما من خلال الأخرى بشفافية . كانت هاتان الصورتان المتنضدتان تقولان له أن بوسع صديقته أن تحتوي كـل شيء ، وان روحهـا كانت لا متناهيـة بوحشية ، وانـه كان يمكن للوفـاء أن يجد فيهـا مكاناً له كالخيانة ، والغدر كالبراءة ، والدلال كالحياء ؛ كان يبدو له هذا المزيج الوحشي منفراً مثل تلويث مستودع قمامة . كانت الصورتان المتنضدتان تتبديان دائماً بشفافية ، إحداهما فوق الأخرى ، وكان الشاب يدرك

بأن الفرق بين صديقته والنساء الأخريات هو فرق سطحي،وأن صديقته في أعماق كيانها الفسيحة شبيهة بالنساء الأخريات في كل أفكارها وكل مشاعرها وكل العيوب الممكنة،وهو ما كان يسوغ شكوكه وغيرته الخفية، وأن رسم الحدود المعينة لشخصيتها لم يكن إلا وهماً كان يستسلم له الآخر ، ذلك الآخر الذي ينظر اليها - أي هو . وكان يبدو له أنها ، كما كان قد أحبها ، ليست سوى ثمرة تفكيره المجرد وثقته ، بينما كانت كما هي حقيقة تمكث هناك ، أمامه بوصفها أخرى وغريبة ومتعددة الأشكال على نحو يدفع لليأس . كان يمقتها .

« ماذا تنتظرين ؟ اخلعي ملابسك ! »

احنت راسها بدلال وقالت : « هل هذا ضروري ؟ »

كانت تلك اللهجة توقظ في سمعه ذكرى مبهمة ، كما لو ان امرأة أخرى قالت له ذلك منذ زمن طويل ، لكنه لم يعد يعرف من هي . كان يريد أن يهينها ، ليس المستوقفة ، بل هي ، صديقته . وراحت اللعبة تؤول إلى الامتزاج مع الحياة . لم تعد لعبة إهانة المستوقفة سوى حجة لإهانة صديقته . كان قد نسي أنها لعبة . وصار يمقت المراة الماثلة أمامه. راح يتفرس فيها ، ثم اخرج من محفظة جيبه قطعة نقدية من فئة الخمسين كورون وناولها إياها : « هل تكفي ؟ »

أخذت القطعة النقدية وقالت : « لست كريماً جداً

ـ قال : لا تستحقين أكثر »

ضمته إليها « إنك تتصرف معي بشكل سيء . يجب أن تكون اكثر لطفاً . حاول ! »

احتضنته وقربت شفتيها من شفتيه . لكنه وضع اصابعه على فمها ودفعها برفق . « أنا لا اقبل إلا النساء اللواتي أحبهن

ـ وأنا ، ألا تحبني ؟

ـ لا

ـ من تحب ؟

ـ هل هذا يخصك ؟ اخلعي ملابسك ! »

١١

لم تكن قد تعرت من قبل هكذا . الخجل والشعور بالذعر والدوار ، باتت تشعر بكل ذلك حين أخذت تخلع ملابسها أمام الشاب (ولم يكن بمقدورها التستر في الظلام) كان كل شيء قد اختفى . وكانت تقف أمامه ، واثقة من نفسها ، وقحة ، في غمرة الضوء ، ومندهشة لاكتشافها فجأة الحركات المجهولة حتى ذلك الحين لتعرٍ ساحر متمهل . راحت تخلع ملابسها قطعة تلو الأخرى بعناية وهي متنبهة لنظراته ، وتتذوق كل مرحلة من هذا التعري .

لكنها بعد ذلك ، حين أصبحت فجأة عارية تماماً أمامه ، قالت لنفسها بأنه لا يمكن للعبة أن تستمر أكثر من ذلك ، وأنها في تجردها عن ملابسها ، كانت قد ألقت أيضاً قناعها ، وأنها أضحت عارية تماماً وهو ما يعني أنها لم تكن إلا هي نفسها وأنه يترتب على الشاب الآن التقدم نحوها والقيام بحركة من يده ، حركة تمحو كل شيء ، وبعدها لن يوجد مكان إلا لمداعباتهما الحميمية. كانت إذاً عارية أمامه وقد كفت عن اللعب؛ كانت تشعر بالضيق في نفسها، وظهرت على وجهها الابتسامة التي كانت تميزها في الحقيقة عن غيرها ، الابتسامة الخجلة والمرتبكة .

لكن الشاب ظل جامداً ، ولم تبدر منه أية حركة لمحو اللعبة . لم يكن يشاهد ابتسامتها مع أنها مألوفة جداً ؛ لم يكن يشاهد أمامه سوى

الجسد الجميل المجهول ، جسد صديقته التي بات يمقتها . أخذ الحقد يغسل شبقه من كل طلاء عاطفي . ارادت الاقتراب منه ، لكنه قال لها : « ابقي مكانك حتى أراك جيداً » لم يعد يروم إلا أمراً واحداً ، أن يعاملها كعاهرة . لكنه لم يكن قد عرف عاهرة من قبل والفكرة التي ترعرعت في ذهنه عنها كانت مستوحاة من الادب ومما يسمعه . تلك إذاً هي الصورة التي تذكرها ، كان أول شيء رآه ، امرأة عارية بثياب داخلية سوداء ترقص على غطاء البيانو البراق . لم يكن يوجد بيانو في حجرة الفندق ، لم يكن يوجد إلا منضدة صغيرة مسنودة إلى الحائط ومفروشة بغطاء . امر صديقته بالصعود اليها . بدرت منها حركة متوسلة لكنه قال : « لقد دفعت لك » .

إزاء هذا التصميم العنيد الذي كانت تقرأه في نظرته ، سعت إلى متابعة اللعبة ، لكنها لم تعد تستطيع ولم تعد تعرف . صعدت إلى المنضدة والدموع في عينيها ، وكانت مساحة المنضدة بالكاد تبلغ المتر المربع ومعوجة القوائم ؛ فكانت تخشى أن تفقد توازنها وهي واقفة عليها.

لكنه كان مسروراً لرؤية هذا الجسد العاري الذي ينتصب أمامه ، والذي كان تردده المتحفظ يجعله ايضاً مستبداً أكثر . كان يريد أن يرى هذا الجسد في كل وضعياته ومن جميع الزوايا ، كما كان يتخيل أن رجالاً آخرين كانوا قد شاهدوه وسيشاهدونه . كان فظاً وداعراً . راح يقول لها كلمات لم تكن قد سمعته يتفوه بها من قبل . كانت تريد المقاومة والفرار من هذه اللعبة ، فنادته باسمه ، لكنه أرغمها على الصمت وهو يقول لها بأنه لا يحق لها أن تكلمه بهذه النبرة الأليفة . انتهت إلى الاستسلام وهي مضطربة وعلى وشك البكاء . انحنت إلى الأمام، أقعت حسب رغبته، وقامت بتحية عسكرية ، ثم مشت بخلوعة لتؤدي مشهداً راقصاً ، لكنها زلقت الغطاء بحركة مفاجئة وكادت تسقط . امسكها وسحبها الى السرير .

اتحد بها . وابتهجت لفكرة أن هذه اللعبة البائسة انتهت أخيراً ، وأنهما سيصبحان من جديد كما كانا في الحقيقة وكما كانا يتحابان . أرادت أن تضغط شفتيها على شفتيه ، لكنه أبعدها ورد بأنه لا يقبل إلا النساء اللواتي يحبهن . انفجرت بالنحيب . لكنه لم يمكنها حتى من البكاء لأن الشهوة الهائجة لصديقها كانت تستولي شيئاً فشيئاً على جسدها الذي انتهى إلى خنق أنين روحها . لم يعد يوجد على السرير بعد إلا جسدين متحدين تماماً ، شبقين وغريبين عن بعضهما . وما أصبح يحدث الآن هو ما خافت منه دائماً أكثر من كل الناس وهو ما تجنبته دائماً بقلق : الحب بلا عاطفة وبدون حب . وصارت تعلم أنها اجتازت الحدود الممنوعة التي ما بعدها أصبحت تتحرك من الآن فصاعداً دون أدنى تحفظ وبمشاركة كلية . بالكاد كانت تشعر في زاوية متوارية من روحها بنوع من الذعر لفكرة أنها لم تشعر من قبل بمثل هذه اللذة ومثل هذا القدر من اللذة في هذه المرة — فيما وراء تلك الحدود .

- ١٢ -

ثم انتهى كل شيء . ابتعد الشاب عنها وشد الحبل الطويل الذي كان يتدلى فوق السرير ؛ فانطفأ النور . لم يكن يريد رؤية وجهها . كان يعلم أن اللعبة انتهت ، لكن لم تكن لديه أية رغبة بالعودة إلى عالم علاقاتهما المعتادة ؛ كان يخشى هذه العودة . كان يرقد إلى جانبها في الظلمة متجنباً كل تماس مع جسدها .

سمع بعد لحظة نحيبها المخنوق؛ لمست يد الفتاة يده بحركة طفولية خجولة ؛ لمستها وسحبتها ، لمستها من جديد ، ثم بدأ صوت يسمع ، متوسلاً ، مهدجاً بالنحيب ، يناديه باسمه ويقول : « إنني أنا ، إنني أنا . . . » .

ظل ساكتاً لا يتحرك وكان يدرك جيداً ميوعة تأكيد صديقته الحزينة لنفسها ، حيث كان المجهول يتعين بالمجهول نفسه .

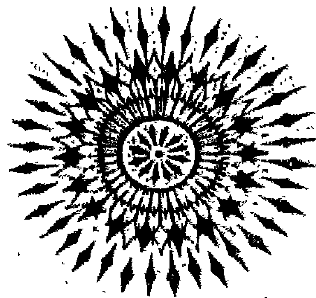
وأفسحت الانتحابات المجال لبكاء مديد ؛ وظلت الفتاة تردد طويلا هذا اللغو المؤثر : « انا هي ، اني انا ، اني انا ، اني انا » .

عندئذ بدأ يستغيث بالشفقة (واضطر لمناداتها من بعيد ، لانها لم تكن في مكان ما في متناول يده) كـي يستطيع مواساة الفتاة . كـان ما يزال امامهما ثلاثة عشر يوماً من الإجازة .

* * *

الفهرس

٢٠٠٠ ط ١٩٩٧/٨/١



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر ١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٣٠٠ ل.س

To: www.al-mostafa.com